

قَصَص

سُنْدُسُ جَمَالِ الْحُسَيْنِيِّ

وَتَغْيِيرِ لَوْنِ
السَّمَاءِ



وتغير لون السماء قصص سندس جمال الحسيني

وتغير لون السماء
قصص

تأليف :
سندس جمال الحسيني

تصحیح لغوي:
سيد عثمان

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع: 2017/11667
التقديم الدولي: 978-977-820-037-9

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيئين التهامي



كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد المحي بجوار مترو ضواحي الجزيرة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانة ورقية أو إلكترونية
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أهداء

أهدي كلمات هذا الكتابِ إلى من علّموني أولَ كلماتي، وخطواتي، وأن الكلمة
روحٌ حرّةٌ لا يكبح جماحها شيءٌ، ومسئوليةٌ كبرى لا يُعيدها بعد التلفظ بها
شيءٌ ... إلى أبي وأمي.

إلى

المهندس / جمال خلف الحسيني

والمهندسة / هناء محمود عبد الغني

منسحبون

بمجرد وصولي لم يستقبلني أحدٌ، بالرغم من الخوف المتجسد في ملامح وجهي، ولحظة التصديق التي أبت أن تراودني، كنت أرغبُ في بعض الصحبة ليفسروا لي ما حدث، ما توقعْتُ أن نكون جميعًا في هذا المكان قد مررنا بالشيء ذاته مع اختلاف الأنماط والأزمان والأساليب، بعد فترة وجدت مجموعة من المصريين يجلسون على الحشائش متفوقعين بعيدًا عن الآخرين، عرفتهم من أصوات ضحكاتهم العالية المصحوبة بالسخرية اللاذعة، فتوجهت إليهم متوجسًا ولكن سعيدًا بالعثور عليهم بعد أيام من الحيرة.

أول ما اقتربت من دائرتهم بدأ الترحيب، قالت فتاة ذات شعر طويل:

- رحبوا بزميلٍ جديد سيقص علينا أخبار الخارج.

ردَّ عليها شابٌ قصير القامة:

- تتحدثين وكأنها أخبار عظيمة!

فتدخلت فتاة بدينة جدًّا وباسمة:

- على الأقل سيقصُّ علينا قصته هو.

حاولتُ أن أبدو جريئًا، فقلت:

- أنا أريد فقط أن أعرف أين نحن؟

راحت جرأتي مع ضحكاتهم العالية المتهكمة، ثم قال رجل خمسيني:

- لا عليك يا بُني، كلنا سألنا السؤال ذاته في أول يوم.

قلت:

- وهل وجدتم إجابة؟

عادوا للضحك بشكلٍ هستيري، حتى إنني التفتت لأرحل، ولكن الشابَّ القصير نهض وأمسك بكتفي وهو يقول:

- أرجوك سامحنا، كلنا مررنا بذلك عقب انتحارنا مباشرة ولفترة لا بأس بها.

حاولت التماسك، ثم قلت:

- أنا لم أنتحرا!

بدا على وجهه أمارات الشفقة وهو يقول:

- بعد أيام ستعترف أنك انتحرت، لا تخف، لا أحد سيسألك عن السبب إلا لو قلته أنت بكامل إرادتك، لا سلطة هنا بتاتاً.

شعرت بارتياح شديد بعد تلك الكلمات، كنت أخشى أن أخضع للتحقيق، وكنت مستعداً لإنكار التهمة التي قد تجعل أهلي يشعرون بالعار، كما كنت أخشى الشماتة ممن كانوا يكونون لي العدااء قبل اتخاذي لتلك الخطوة، ورغم ذلك بدوت متردداً حتى أضاف:

- تعال، اجلس معنا واسمع حواراتنا، وليس عليك أن تتحدث إلا حين تشعر بالرغبة في ذلك.

جلست على استحياء، ونسوا وجودي تقريبًا، رغم أنهم كانوا يتحدثون عني أحيانًا، قالت البدينة ذات الابتسامة الساحرة:

- يبدو صغيرًا، المسكين، سيبكي ندمًا بعد أيام، وسيذهب إلى قاعة الاستقبال ويطالب بالعودة، وبعدها سيبدأ في التأقلم والرضا والبحث عن ذاته مرة أخرى هنا.

أردفت ذات الشعر الطويل:

- هذا لو كان قد اتخذ قراره بشكل جنوني مثلك، يبدو لي أكثر حكمةً، وقد اتخذه بعد دراسة وافية، بل ولم يجعله واضحًا للعيان، لقد اختفى تمامًا من هناك.

قال القصير متهكمًا:

- لن يختفي طويلًا، في النهاية ظهرت فيرجينيا وولف رغم الحجر الثقيل الذي ربطته بجسدها، لا أحد يختفي إلى الأبد.

ازدردت لعابي في صعوبة، وتلفت حولي على أمل أن أراها حولي في مكانٍ ما، لم أجدها، ثم تنبعت أنني لا أعرف شكلها من الأساس!

ردت الفتاة:

- ربما كان أكثر ذكاءً، لا تدري لعل الشرطة في بلادنا أقل اهتمامًا.

خفتُ فعلاً أن يفتضح أمري عند أهلي وأصدقائي، فربما هذا أخي الأصغر
حذوي، وربما نُشر الخبر في الصحف فشمت بي الشامتون، لا أعتقد أنهم
سيُخضعونني للطب الشرعي، أهلي أبسط من توقع أنني انتحرت! الخوف كل
الخوف من مجموعة أصدقائي ورفاقي، فالشك في دمائهم يسري.

قال الشابُّ القصير:

- أتذكر جيداً تلك الخطوة حين اتخذتها، كان الهواء في الشرفة بارداً جداً،
شعرت أنه يناديني لأحلق في السماء، خلعت السترة الثقيلة وقتلتها قبلي،
وحين طارت مع الرياح قررت أن أطيّر مثلها، لا لم أقرر شيئاً، لقد حملتني
قدماي بسرعةٍ هائلةٍ للوقوف على حافةِ الشرفةِ والقفز، لا أذكر شيئاً بعدها
سوى وجوهكم.

قال الرجل الخمسيني:

- وكل مرة لا تذكر لنا السبب.

- أقسم أنه لا يوجد سبب سوى عشق الهواء!

قالت ذات الشعر الطويل:

- كاذب!

- ولماذا أكذب عليكم!

- لا بد من لحظة ضيق هائلة! لا بد من لحظة انهيار، حتى لو سبقت عشقك

للحواء كما تدعي!

- كنت أعشق أن أختار لنفسي، أن أكون صاحب القرار، وأعجبتني فكرة أن أكون أنا من يُحدد تلك الساعة.

- كلنا هذا الشخص، حتى كليوبترا قالت ذلك، ومارلين مونرو، ولكنهم مرّوا بلحظات دمار شامل أدت إلى هذا القرار.

كنت قد بدأت في تخيل الموقف، هذا المكان هو للمنتحرين فقط! وأنا الذي ظننتُ أنني سأقابل أصدقائي من الشهداء والمقتولين، وجدي وعمي وأمي! ها قد تم عقابي بالأقابل إلا من يتفلسفون ويُكثرون من اللغط.

قال الشاب القصير:

- أشعر أنني قد رأيت وجهه من قبل، ربما كان معي بالجامعة ذاتها؟

بدأت في التوتر، كنت أتمنى أن يكونوا قد انتحروا قبل أن يصبح لوجهي تلك الشهرة، قال الرجل الخمسيني:

- ربما كان يعمل في مجال الفن، يبدو وجهه مألوفاً لي أيضاً، قبل لحظتي كنت أتابع الفن عن كثب.

تدللتُ ذاتُ الشعر الطويل وهي تقول له:

- ولماذا تلونت حياتك باللون الأسود حتى قررت هذا القرار؟

- أنتِ تعرفين!

- ولكن في كل مرة تذكر تفاصيل جديدةً لم أكن قد سمعتها من قبل.

- تعرفين أنني فقدتُ معنى الوجود، بعدما ماتت ابنتي، كنت أظن أنني سأراها حين أفعل ذلك، منعوني عدة مرات، وأنقذوني مرتين، وفي الأخير انتصرت إرادتي.

ضحكتُ لأول مرة، هو أيضًا ظنَّ أنه سيقابل الراحلين، والآن كيف السبيل إلى العودة؟

قالت الفتاة البدينة عذبة الكلمات:

- تقليدي جدًا أنت، حزنت بشدة، اكتأبت، تناولت أدوية الاكتئاب بلا جدوى، انتحرت في لحظة جنون، أندمت؟

- بشدة! ولكن أحيانًا تتملكني روح من هدوء وسكينة، على الأقل عرفت نهايتي ولم أعد أكثرث بالمستقبل، ولكن هدفي لم أصل إليه وهذا ما يشعرني بالندم، ربما لو انتظرت ساعتني كالآخرين المغلوبين المنقادين إلى مصائرهم، لذهبت إلى المكان الآخر حيث ابنتي.

ربت الفتاة البدينة ذات العيون الغارقة في السحر على كتفه، ونظرت إليّ مباشرةً بحنو بالغ، لم أفهم لماذا ارتحت لنظراتها وكنت أود أن أعرف سبب انتحارها، لم تنطق، بل بدأ الشاب القصير في السخرية والمزاح حتى قال:

- نحن مجموعة خاسرين! لا يوجد أي فرد من مجموعتنا غير خاسر.

قالت ذات الشعر الطويل:

- مخطئ أنت يا عزيزي، هناك الكثيرون ممن انتحروا في عز مجدهم ونجاحهم، ومنهم من سأم الحياة رغم كونها كانت سخية معه بلا حساب.

ضحك وقال:

- أي حياة وأي سخاء؟ تقصدين النجاح الأدبي والشهرة والمال؟ بالطبع كان لديهم بؤس ما جعلهم خاسرين في مواضع أخرى، جعل منهم مدمنين لأي شيء يسري في دمائهم فيغيّر من تكوين عقولهم، بالتأكيد كرهوا حياتهم لأسباب حقيقية.

تسرب الملل إلى نفسي سريعًا، لم أتخيل كيف سأقضي الأيام في هذا المكان، فجأة قلت:

- ولماذا أقدمت فتاة جميلة العينين مثلك على الانتحار؟

نظر لي الجميع مندهشين، لم تدرك هي أنني أتحدث عنها، إلا حين لاحظت أنني أنظر إليها، ضحكت ضحكة هي الأكثر صفاءً بين الضحكات التي يتردد صداها في العالم، ثم قالت:

- لأنه لا أحد في حياتي السابقة كان يراني مثلما رأيتني أنت.

شعرت بالرهبة بعد كلماتها بلا سبب واضح، ربما لأنني لم أعتد كلمة حياتي السابقة بعد، لازلت أشعر أنني سأعود وسأخبرهم بدوافعي، أو سيكون هناك فرصة أخرى في الحياة التي اعتدتها، قلت بصعوبة:

- لا داعي للسخرية والضحك، ولكن هل هناك من أي سبيل للعودة؟

ضحكوا رغم طلبي، توترت وقررت أن أتركهم، ولكن الشاب القصير
استوقفني وقال:

- حسنًا أنا أعرفك! لكن سامحني لا أذكر متى رأيت وجهك في الحياة الأخرى،
هلا عرفتنا بنفسك؟

- لا أرغب في أن يعرفني أحد، لا أحب أن يُذكر اسمي في أي ملاء.

- ولكنني أشعر بفضولٍ غامر، لا أستطيع أن أوقف سيل الأسئلة! أشعر أنك
هو، نعم أنت هو من أظن، ومن أرفض أن أظن أنه هو.

اندهش الجميع من تلك اللهجة، عرفت أنه يعرفني، ويرفض أن يصدق أن
النهاية كانت أنني انتحرت، قلت بسرعة:

- لست هو، أنا أشبهه فقط، الآخر مات مقتولًا عدة مرات، في كل مرة كانوا
ينقذونه قبل الرmq الأخير، ولكنني لست هو.

- هل تقصد لم تعد هو؟

- أقصد أنه قد مات قبل انتحاري بزمان طويل، زمن يطول في نظري وفي
عمر الزمن هو زمن لا يساوي غفوة ظهيرة.

قام الرجل الخمسيني وعلى وجهه علامات البؤس يقول:

- لو كنت أنت الذي نظن أنه هو، وكانت نهايتك هناك أنك قد انتحرت! إذن لا
فائدة في حياتنا السابقة ولنشكر الظروف التي قادتنا إلى أن نتخلص من
حيواتنا، لا أمل ولا هدف بعد انتحارك.

آلمتني كلماته، أعرف أنه محق، وأن اكتشافه هذا هو ما دفعني للخلاص، لم
انسحب لأنني جبان، بل لأنني أقوى من تصور أنني سأتمكن من مواصلة
الكفاح، الخصم الرعديد يستمر في حرب يعرف أنه خاسر فيها، فيترك نفسه
ليصبح مهزومًا بيد عدوه، بينما المقاتل الشجاع ينسحب، حاولت أن أعبر عن
تلك الحالة ففشلت، صمْتُ تمامًا منكَسَّ الرأس، لم أندم، ولكنني حرصت ألا
يعرف باقي المقاتلين أنني قد انسحبت في هذا الهدوء، كنت لا أزال أتسلح
بأمل أن ينجح أحدهم في الفوز بتلك المعركة، ربما ظهر من هو أقوى مني
في العقود القادمة.

قالت ذات العيون المذهلة:

- لا عليك، لا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به، كلنا انسحبنا لأننا رفضنا
الاستمرار في الألم.

كيف عرفت ما أفكر به! فأضافت:

- لا تندهش من كوني أعرف ما يدور بخلدك، كلنا مررنا به ونشبه بعضنا
ولكننا لا نعترف.

ابتسمت لها ممتنًا، ثم قلت:

- حسناً أنا هو! هو من تظنون، ومن كنتم تعتقدون أنه رمز الثورة والأمل،
انتحرت بكامل إرادتي، لست نادماً، ولكنني أخشى أن يستغل عدوي رحيلي
في تثبيط عزيمة الآخرين، انسحبت لأنني أضعف منه قوةً، انسحبت لكي
تكون يدي هي الفاعلة، لا يده ولا يد جلاديه.

بينما يسمعونني، وكلماتي تتواصل في بث روح الرضا بداخلي، ظهرت في الأفق مجموعة من الشباب والبنات يحملون الأعلام ويتقدمون نحونا في خطوات ثابتة، حين اقتربوا عرفت الوجوه، هؤلاء رفاقي لا ينقصهم أي واحد!

صرخت:

- لماذا أتيتم!

أجاب رفيق الكفاح:

- تركنا الساحة له فليحارب وحده، فلينتصر وليشمت في غبار الأرض ورياح السماء وصخر الجبال.

ازدحم المكان، ما بين مندهشين وفرحين، شعرت بغبطة غريبة، صار لنا عالم خاص بنا، تركنا ساحتنا وساحة أجدادنا، فليفرح بالنصر الوهمي، وليبحث عن يستعبده، فلا يجده.

قالت لي زهرا

بخطوات بطيئة في مسيرة معظمها أفغان وباكستانيون، بالإنجليزية قالت لي زهرا:

- المصريون هم أجمل شعوب الأرض.

- نعم؟

- بالتأكيد؛ لأن حضرة يوسف عليه السلام كان من هناك.

- حسناً هو لم يكن في الأصل من مصر، كان من الشام، وبغض النظر، فنحن نشبهكم كثيراً، وعلى العموم شكراً.

- ليس لدينا هذه العيون الفرعونية المتميزة، إنها الأجل على الإطلاق!

ضحكت بلا تعليق؛ كنت سعيدة لأنني وجدت أخيراً لساناً ناطقاً بالإنجليزية السليمة وسط كل هذا الأوردو والفارسي، بينما نحن في ألمانيا! ولأنني وجدت من لا يسألني عن الحرب في مصر، فمذ قليل كنت قد شرحت بنفاذ صبر لأحدهم وأنا غير واثقة من كونه قد فهم، أننا لا نعيش أي حرب من أي نوع! هناك بعض القلاقل والنزاعات العادية، ولم نعش أي حرب منذ سنوات طوال هي بعمر أبي! لكن كان هذا الخلط بين كل دول الشرق الأوسط في عقول الناس هنا مزعجاً جداً، وكثيراً جداً. كما كنت سعيدة لأنها لن تبدأ بسؤالي عن سبب وجودي، أو ملابسي، أو لوني، أو كيف سمح لي رجال

أسرتي بالتواجد خارج المنزل، كما سألتني تلك الفتاة الأوكرانية في الجامعة بكل اهتمام. كنت أتعرض كل يوم إلى سيل من الأسئلة الغريبة التي لو فكر طارحوها في إجابتها للحظات لما طرحوها، وكانت هي شرقية إلى حد ما، فلن تسأل.

رحت أستمع إلى زهرا وهي تحكي وتحكي، حكايات لا تشبه غرض المسيرة على الإطلاق، قالت:

- لقد وصلت إلى ألمانيا منذ ثلاثة أشهر. ولازلت في بدايات تعلم الألمانية، لا أعرف منها بعد إلا بضع كلمات.

- لأول مرة؟

- نعم، لأول مرة أخرج من إسلام آباد. تعرفين إسلام آباد هي العاصمة، أنا أحبها كثيرًا.

- هذا طبيعي أن تحبينها كثيرًا، هي بلدك.

- لا هي حقًا جميلة وتستحق هذا الحب، أشتاق إلى الطقس وإلى الناس، وحتى الزحام ورائحة الأسواق المشبعة بالتوابل.

- لكن قلت لي إن أمك ألمانية، كيف لم تأتِ معها من قبل؟

كانت أخبرتني في بداية التعارف أنها تحمل الجنسية الألمانية منذ مولدها؛ لأن والدتها ألمانية، كنت قد لاحظت اختلافًا في ملامحها وألوانها عن باقي

الباكستانيات، ولكن هي تطوعت بإخباري بالسبب الذي أدخل اللون الأزرق إلى عيونها دون أن أسأل. قلت مازحةً:

- هذه غلطة أمك أنها لم تعلمك لغتها، في العادة تحرص الألمانية على التحدث بالألمانية مع أطفالهن، بل وحتى أزواجهن! هل كانت تتحدث معك بالأوردو؟

ابتسمت وهي تقول:

- لم أر أمي منذ كنت في الثالثة من عمري.

كان لزهرا ابتسامةً خلابة تجعل عينيها تضيق قليلاً، ووجنتيها تضيآن، كانت تبتسم بلا انقطاع كاشفة عن جزء صغير من أسنانها. ابتسمتُ أنا أيضًا ثم أردفتُ محاولةً عدم إضفاء لمسة حزن على صوتي:

- ظلمناها، لم تكن مخطئة إذن.

ضحكت بصفاء شديد ثم قالت:

- أتيت إلى ألمانيا بناءً على رغبة جميع عائلتي في باكستان، ولكنني في الحقيقة أتيت لأبحث عنها، أريد حقًا أن أراها، أتمنى أن أجدها تفهم بعض الأوردو أو حتى الإنجليزية.

- لا تقلقي ستجديها وستجدين وسيلة للتواصل.

- لقد انفصلتُ عن أبي بعد أن كانت تعيش معنا في إسلام آباد، وكانت تسأل عنا بين الحين والآخر، عن طريق أبي، حتى توفي منذ عدة أعوام. ومن

وقتها لم أسمع عنها شيئاً.

أردت أن أقول كم هذا حزين، ولكنني اكتفيت بمجاراتها في الابتسام، وفي الاستماع. أضافت:

- كلهم خططوا لي أن أهاجر إلى ألمانيا؛ لأكون مع شقيقتي.

- هذا جيد.

- لا ليس جيداً، إنهم يقررون كل شيء.

لم أسأل من هم؟ كانت شقيقتها تسير بجوارنا ومعها ابنها الرضيع، وابنا آخر يسير بجوارها، لا تفهم حرفاً من الإنجليزية، وتحدث ألمانية ضعيفة، علمت أنها قد تزوجت في باكستان من ابن عمها كالمعتاد، ثم قدمت إلى ألمانيا معه ليبحث عن عمل، بحكم كونها ألمانية الجنسية. كانت زهرا تلتفت حولها كثيراً لتتأكد من أن شقيقتها لا تفهم حديثنا. قالت:

- هل تعلمين، في درس اللغة الألمانية معي العديد من العرب، سوري وعراقيون وفلسطينيون. أرغب حقاً في أن أتعلم لغتهم. تبدو لي غاية في الجمال.

- سأعلمك بعض الكلمات باللهجة الشامية وسينبهرون بك.

ضحكت وقالت:

- أحياناً أستطيع فهم بعض الكلمات، هناك الكثير من الكلمات المشتركة مع الأوردو.

- وماذا عن الشاب السوري؟ هل هو ظريف؟

- كيف عرفتِ أن هناك شاباً سورياً في الدرس!

ابتسمت وأنا أقول:

- أنتِ مكشوفة جداً، قلتِ: سوري وعراقيون وفلسطينيون.

توردت وجنتاها وهي تقول:

- لا أنتِ زكية جداً.

انفجرت في الضحك وسألت:

- هل يرضى أهلُك أن تذهبي إليهم وتخبريهم أن هناك شاباً سورياً على سبيل المثال، فقط كمثال، يرغب في الزواج بك؟

- مستحيل.

- لماذا؟ حتى لو كان يؤمن بالدين ذاته؟

- الأمر أكثر تعقيداً مما تتصوري، هناك شجرة العائلة، لا بد أن يكون من العائلة ذاتها، أو من درجاتها، لا بد أن يكون مادياً متماثلاً معنا، لا بد أن يكون باكستانياً بالطبع. مجنونة أنتِ.

كانت تقول ذلك بتهكم شديد.

قال المتظاهرون:

- حياة كريمة للاجئين الأفغان.

هتفوا جميعًا:

- كل البشر سواسية.

كان المنظمون ألمان، والمتفاعلون من المقهورين، أتيتُ فقط كحب استطلاع.
رأيت الشرطة تحمي المظاهرة، والمتظاهرون يوزعون منشورات تشرح
القضية على المارة، يتفاعل بعض المارة وينضمون إلى المسيرة، والبعض
الأخر لا يهتم ويرحل، الشارع هادئ تمامًا، بالرغم من الهتافات التي تخرق
الصمت اليومي، كون الأمر حضاري ومختلف بهذا القدر كان يتلاعب بي
ويدمج المشهد مع مشاهد أخرى رأيتها في الماضي في القاهرة فيصيبني
بالإرهاق الفكري. قالت لي زهرا:

- هل تصدقين أن شقيقتي كانت تحاول أن تقنعي بالزواج من شقيق زوجها،
المشكلة أنه لم يكمل حتى تعليمه الثانوي، وأنا معي ماجستير إدارة أعمال.

- لا توافقي بكل بساطة. أم إنهم سيجبرونك؟

- يجبرونني، ولكنهم سيجعلون حياتي كالجحيم. في محاولات إقناعي، ثم
سيقولون عني مغرورة وتمرّدة، ثم سيعاملونني بطريقة بشعة.

- لا توافقي وانتهينا، بعد فترة سيمر الأمر.

- المشكلة أنه أيضًا لا يحبني مثلًا بشكل خاص، كانت له صديقة، وهو مدمن
للمخدرات والخمور بينما أنا لا أشرب على الإطلاق، كما أنه تورط أكثر من

مرة في أعمال عنف وأمور مخالفة للقانون.

نظرت إليها لأرى تعبيراتها، كانت تتحدث بينما نسير؛ لذا كنت قبل ذلك أتابع
المسيرة، وجدتها لازالت تبتسم. قلت:

- هذا غير مناسب لكِ بالمرّة.

- أعلم ولن أقبل ولو على جثتي، لا يضايقني الأمر، فهم فقط يريدون له
الهروب من باكستان، وأن يتزوج من تحمل جواز السفر الألماني، فتستقيم
حياته كما يتصورون. هذا طبيعي، يريدون له الأفضل. لكن ما يضايقني هو
موقف شقيقتي، تعلم جيدًا أنه غير مناسب لي بالمرّة، وأني أرفضه، ورغم
ذلك تحاول إقناعي، وتغضب مني، أحيانًا أشعر أنها لا تحبني، لا تحب إلا
زوجها الغليظ الذي يقول أشياءً قبيحة بحق أمي فقط لأنها أجنبية لا تدين
بدينه.

صمتت قليلًا ثم قلت:

- أختك لا تكرهك، بالعكس هي تحبك بشكلٍ كبير. فقط هي تخشى من
زوجها، وتريد لحياتها أن تستمر مستقرة، فهو يضغط عليها من أجل شقيقه
المنحرف. ويسمم حياتها وهو حتمًا يجيد ذلك.

- كيف عرفتني! أنتِ لستِ حتى من بلادنا لتعرفي طبع الرجال المتزمتين
لدينا!

ضحكت وقلت:

- لدينا منهم الكثير، نحن متشابهون جدًا.

- لهذه الدرجة؟ إنه يسيطر عليها بالكامل، حتى صرت لا أعرفها.

- إنها فقط تتفادى المشاكل، وتخشى أن يجعل الحياة لا تحتل، فهو بارع جدًا في ذلك.

- لكنني لن أسمح له أن يتدخل في حياتي ولا أن يقرر بالنيابة عني! هل تصدقين أنه لا يريدنا أن نبحث عن أمنا؟ بل وجعل شقيقتي تقول لي أيضًا إنها لا تهتم بالوصول إليها.

في تلك اللحظة كان صوتها غاضبًا، وبالرغم من ذلك كانت لا تزال تبتسم ابتسامة بها مرارة، ثم قالت:

- هل لازلت تعتقدين أنها تحبني؟ إنها بهذا لا تحب إلا نفسها.

- صدقيني هي تحبك ولكنها تفكر في حياتها وأطفالها وتختار الطريق الأسلم، أعتقد أنك لو عشت هنا أكثر ستستطيعين أن تجبريهن على الزواج من شخص من اختيارك.

- أنا لا أريد أن أجعلهم يكرهونني، أنا أحب عائلتي وأحب أن أكون تقليدية وأن أتبع العادات، لكن هذا يفوق احتمالي، جعلوني أترك بلدي التي أحب، وأصدقائي، وحياتي، فقط لأن ألمانيا ستكون فرصة جيدة لشاب باكستاني من عائلتي يتزوج بي ويأتي بسبب جوازي إلى هنا، وماذا عني أنا؟

هنا بدأت العبرات تترقرق في عينيها، ورغم ذلك ظلت محتفظة بالابتسامة.
قلت:

- أنا أفهمك تمامًا، أنت تكرهين أن يتزوجك شاب فقط لأنك تحملين الجنسية الألمانية، ليس لأنك زهرا، ليس لأنه اختارك أنت ويحبك لذاتك، ولكن صدقيني ربما كانت الطريقة التقليدية ليست بهذا السوء دومًا، ربما يأتيك شاب طموح ثم يُعجب بك لشخصك، نعم هي نسبة ضئيلة ولكن موجودة ولا بأس بها، دعي الأمر للوقت، واهتمي باللغة وأن تجدي عملاً وأن تنخرطي في المجتمع، وابحثي عن أمك، ربما تجدين لديها جوابًا لأسئلة ظلت معلقة منذ طفولتك، ربما كانت مظلومة وتحاول البحث عنكم، ربما منعها أحد الكارهين للأجانب أو لأن دينها مختلف.

بكت زهرا وهي تبتسم، حاولت إخفاء عباراتها سريعًا ولكنها كانت تبكي بلا انقطاع، ثم قالت:

- كيف فهمتي كل شيء عني وأنت لا تعرفيني إلا منذ ساعتين؟ بينما لا يفهمني أهلي؟ كيف فسرتي مشاعري بكل تلك السلاسة؟ حقًا أهل مصر مباركون.

ضحكت وأنا أقول:

- لا مباركون ولا شيء، عائلتك تفهمك ولكنهم يرون الأفضل لك من وجهة نظر مختلفة لا أكثر.

كادت المسيرة أن تنتهي، بشكل عادي بلا اشتباكات ولا مصابين ولا اعتقالات، أمر ممل للغاية مقارنة بالأحداث الدامية في القاهرة خلال السنوات الأخيرة، وكنا نعلم أنها مسيرة من الرابعة إلى السادسة ستتم من هذا المكان وتنتهي في هذا المكان. قالت لي زهرا:

- هل سأراك مرة أخرى؟ لا بد أن نصير أصدقاء.

- نعم، سأعلمك بعض العربية، وباللهجة السورية أيضًا.

عادت للابتسام بصفاءٍ شديد، وكأنها وُلدت في الجنة ولم تعانِ في حياتها مطلقًا، كانت قوية ولا تعلم أنها قوية. كانت مميزة جدًا وتظن أنها أقل من فتاة عادية، ولكنني لم أقابلها مرة أخرى، تبادلنا الأرقام وتراسلنا، علمت أنها كانت تبحث سرًا عن والدتها، وأنها وجدتها وقررت أن تنتقل إلى المدينة التي تعيش فيها بعد أن فرحت أمها بلقائها بشكلٍ كبير، وتركت شقيقتها، ثم عادت إليها واصطلحًا وظلت على علاقة بأمها، قالت لي إنها تكره التمرد، ولا تريد أن تصير ألمانية العادات، ولكنها صارت مستقلة بعد حركة التمرد الصغيرة تلك، لم يعد أحد يستطيع فرض إرادته عليها، كنت أنتظر منها المزيد من التمرد والخروج عن السرب، ولكنها كانت راضية بما حققتة.

قالت لي زهرا إن لغتها الألمانية تحسنت كثيرًا، ولكنها ترغب في معرفة بعض الجمل باللهجة السورية، ابتسمتُ وأنا أطالع تلك الكلمات مكتوبة في حوارنا على الهاتف، منتظرة مستقبلًا به المزيد من الخروج التدريجي عن الخط المرسوم للفتاة الباكستانية الملتزمة.

ما هو إلا صعلوك

انعزل عبد المجيد تمامًا عن جميع أهل الحي، كان غير راغبٍ في أي مزيد من التواصل زاهدًا في أي علاقات، السابقة منها أو المستقبلية المحتملة، وقد قرر أخيرًا أن يعيش وحده، وإلى الأبد، بلا انتهاء، شعر أن دينونته تقترب، وحياته بهذا الشكل المهين لم تعد ترضيه ليموت عليها، كان يرغب في التغيير وفي هذا التوحد مع ذاته، أن ينسى صدقًا كل شيء ألمَّ به طوال عمره، من ذلٍّ وإهانة، قرر أن يمحو اسم عبد المجيد الصعلوك من ذاكرته، وأن يبدأ بداية جديدة، تكون فيها نهايته الكريمة.

لينفذ خطته اختار وقتًا متأخرًا من الليل للهرب، كان قد أعد العدة منذ شهور، كهف في الجبل لم تطأه أقدام البشر، منذ زمن حفظ الطرق الوعرة في الجبل عن ظهر قلب، وطالما أحب التنزه فيها وحده بعيدًا عن أنظار أهل الحي، هذا الكهف يصلح لحياته الجديدة، فيه سيعيش كما يرغب ولن يعترضه شيء.

الوحدة التي عاشها منذ طفولته لم تجعله يشعر بفرقٍ في هذا المنفى الاختياري؛ فقد كان يتيمًا منذ المولد، أو بالأحرى لقيطًا لا يُعرف له والدان، اعتنت به أسرة فقيرة ليزدادوا به فقرًا، كانوا يعاملونه برفق، بالرغم من المألوف والمعتاد عن معاملة اللقطاء بالشدة والغلظة، ولكنهم حقًا اعتبروه واحدًا منهم، ولكن لم يستطيعوا درء الغمزات واللمزات عنه، فنشأ وهو يدرك أنه مختلف اختلافًا لا تغيره الأيام، كالعاهة لا مناص منها.

أحبهم كثيرًا، كانوا له عائلة ودفنًا وطعامًا يوميًا، ولكن حين وصل لأعتاب الشباب كان قد ضاق بضعفهم ذرعًا، فقرر في يومٍ أن يتركهم ويجرب حظه في حي لا يعرفه فيه أحد، وحين رحل عنهم كان لا يُدرك أنه سيبدأ حياة الصعلكة الحقيقية وأنه لن يعيش إلا بمزيدٍ من وصمات العار والعاهات، التي ستكون تلك المرة تابعة لأفعالٍ لم يولد بها.

حياة طويلة عاشها حتى بلغ الستين، لم يكن أبدًا ذا قيمة ولا لوجوده أي تأثير، مرات عديدة متفرقة حُكم عليه بالسجن للسطو الحقير على محلات البقالة أو بائعي اللبن، كان يخرج من الحبس أكثر احتقارًا من الآخرين ودونية، ولا يذكر عملاً شريفًا امتننه إلا مهنة المهرج في الأعياد، حين كان يرتدي قناعًا كبيرًا يُخفي به وجهه ويبدأ في إلقاء النكات لإضحاك الأطفال، كان يحب تلك المهنة الموسمية، ويعود بها طفلًا، وينسى بها تاريخه الذي بدأ قبل ولادته.

لم يتزوج قط، فلم يكن له ولد قط، كان يكره النساء ويرى فيهم تلك المرأة التي تركته رضيعًا ذليلاً يحمل عنها عارها الذي لم تستطع أن تواجه المجتمع به، كان يحمل عارًا لا يخصه، ولم يفهم أبدًا من وضعه على كتفه وبأي ذنب، وكل ما رسخ في ذهنه هو كرة للأسرة وللأمهات وللآباء وللإنجاب وللعالم.

أخيرًا وحده، بلا ألم، ولا نعوت كريهة، سيعيش هانئًا هادئًا، وبالفعل مكث في الكهف فترة ارتاحت فيها روحه الهائمة، واسترد بعضًا من حبه للحياة، الذي لم يرافقه إلا طفلًا لم يفهم بعد، بل وصنع بعض الألعاب ليُمضي وقته بلا ملل، كان يحب الألعاب ويشعر نحوها بالحنين للفترة القصيرة الصافية من حياته.

صنع بعض التماثيل الصغيرة كالدمى، وأطلق عليها الأسماء، كانت بدائية في البداية حتى قرر أن يُركز جهوده على صنع نموذج متميز، يحمل صفات جيدة فقط، يبدو جميلاً، أنيقاً، ويصلح كدمية فائنة، وأثناء صنعه الذي استغرق زمناً لا يعرف مداه؛ إذ لم يعد يحسب الزمن، قرر أن يمنحه وجهًا يشبه وجهه في مراهقته وبدايات شبابه، لم يكن عبد المجيد قبيحاً أبداً، بل كان لقسمات وجهه بعض الجمال، ولطوله هيبة، ولكنه لم يكن أيضاً ذا دهاء أو ذكاء، ولا شجاعة؛ لذا كره كل ما فيه ولم يَز هذا الجمال مطلقاً، ولكنه الآن قرر منح وجهه لتلك الدمية على أن يجعلها أكمل وأجمل، سيمنحها بعض الشجاعة تبدو واضحةً في الملامح، والقوة والجرأة، وكأنها مشروع حياته.

صنع دمية الرجل القوي الوسيم، وأحبه جداً حتى صار يقص عليه حكاياته أثناء صنعه، ذكريات من طفولته، ومن عمله كمهرج، وبعض أيام السجن، وجد نفسه بلا وعي يتطرق إلى النعوت، والإهانة، كان يبكي وهو يذكر بعض اللحظات، ولكن يشعر بأنه يتحسن ويتقبل ذاته أكثر، حتى اكتملت الدمية وأصبحت في غاية الجمال والإبداع.

في تلك الليلة نظر عبد المجيد إلى دميته مشدوهاً، لا يصدق أن أنامله قادرة على صنع شيء بهذا الحسن! لم ينم من فرط الانبهار، وعاد يتحدث مع الرجل الذي بدا له في العشرين من عمره، عبد المجيد النسخة المعدلة، رقص فرحاً وجذلاً بجوارها وراح يتحدث مع الشاب الجديد في هذا العالم، ويقول له أنت الأفضل وأنت الأجمل وسأسميك أمجد؛ لأنك ستكون حقاً صانع أمجاد وليس مجرد عبد مثلي.

مرت الأيام ومل عبد المجيد من عدم وجود أي ردة فعل لأمجد، وظل يحلم طويلاً أن يتفاعل معه أمجد، وأن يسمع له صوتاً أو يرى له انفعالاً، كل يوم صار يطلب منه ذلك ويقول له أنت مجدي ومعجزتي حتى بدأت حقاً المعجزة! فقد تحركت عيون الدمية معه فتوقف مبهوراً!

أيتخيل؟ أم أن الدمية الصماء تتحرك حدقة عينيها مع حركته؟ بعد عدة تجارب للحركة أيقن من أنها تتجاوب! انتظر عبد المجيد تلك اللحظة طويلاً وتخيّلها ورسمها في ذهنه كما يجب أن تكون، لا بد أن يراه أمجد شخصاً عظيماً وقوراً مبجلاً ومهيّباً! لا بد أن يعظمه ويخشاه ويحبه ويطيعه؛ لذا بمجرد حركة أمجد اتخذ عبد المجيد وضع الجلوس المعتدل ورسم ملامح الفيلسوف العبقري.

أول كلمات أمجد كانت:

- من أنا؟!

وبصوت رخيم قال عبد المجيد:

- أنت أمجد من المجد، صنعتك من مجدي ومن روحي، أنت امتداد لعظمتي وهيبتي.

- ومن أنت؟

- أنا أقدم منك بكثير وأعرف كل شيء، مني ستتعلم وعلى نهجي ستسير.

بدا أمجد حائرًا خائفًا في البداية حتى تراخى صوت عبد المجيد وهو يقول
في وقار وحنان في آن واحد:

- وأنا أحفظ حبك في قلبي طالما أحببتني وأطعتني، وإن غضبت عليك
سأعيدك إلى العدم حيث كنت، اتفقنا؟

- لن أجعلك تغضب مني.

- هكذا أريدك وهكذا ستكون.

فرح عبد المجيد للغاية برد فعل أمجد المطيع الخانع، وشعر كأن دماء حيوية
جديدة سرت في عروقه، وقرر ألا يخبر أمجد عن أي شيء من الماضي، ولا
حتى عن وجود غيره من البشر، كان يرغب في رؤية الانبهار في عيونه
بحجمه الأضخم ومعرفته الأوسع، وقرر ألا يتركه للملل حتى لا يطالبه بصنع
دمية أخرى تشاركه فيه، وحتى لا يقع في هذا الفخ، أخبره أن صنعه كان
معجزة ولن تتكرر.

كان أمجد يفيق كل صباح ويقول لعبد المجيد:

- سيدي العظيم، ذا الهيبة والكرامة والعزة والفخر، صباح الخير.

وبعد قليل:

- سيدي العظيم، صاحب الشرف والقوة والجرأة، أوامرني أطيعك.

وفي المساء:

- سيدي العظيم، ذا المجد والنصر ومن لا يجروء على نعته بغير ذلك أحد،
مساء الخير.

وكان عبد المجيد يرتوي من تلك النعوت ويشعر أنها تجعله ينتفخ من فرط
الزهو، وكأن أمجد قد وُجد فقط ليردد على مسامعه ما لم يسمعه من بشري
قط.

ولكن بدأت ثورة أمجد أسرع مما تخيل!

كان أمجد يحب أن يسأل عن أصل الأشياء، من أين أتت الصخور، كيف تنبت
النباتات، ما هي النار، لماذا نأكل الحيوانات، يسأل عن كل شيء وأي شيء،
السماء والماء والنجوم والقمر والسحب والألوان والشمس والطقس، وكان
عبد المجيد يجيبه دومًا بما يقدر عليه من علمه الضئيل المتخازل، فهو لم
يكمل عامه الرابع بالمدرسة، ولم يكن لديه اهتمام بالعلوم ولا بغيرها، في
الحقيقة لم يهتم بأي أمر بشكلٍ خاص طول حياته حتى لو كان حرفة يدوية!

خاف عبد المجيد أن يُصبح أمجد جاهلاً محدود الذكاء مثله، فغافله يومًا
وأحضر الكثير من الكتب من الحي، كان يتوقع أن يستقبله الناس حين يرونه
بالتساؤل عن سر غيابه الطويل، ولكن لم يسأله أحد وكأنه سراب لا يرى من
قريب، فقرر عقابهم بسرقة الكتب من المكتبة العامة ليتعلم منها أمجد.

بعد وقت نذير بدأ التمرد!

بعد قراءة أمجد لعددٍ من الكتب بدأ في معرفة الكثير، وأصبح مُقلًا في نعت
عبد المجيد بالنعوت الوهمية الواصفة لعظمته وكرامته، ثم أكثر في سؤاله

عن تاريخه، وعن عظمته تلك، وسرها ومن أين أتت، وتبع ذلك بأن أخبره بأنه يظن أنه ما هو إلا مريض بحب الذات وأنه غير سوي النفس جاهل بالعلوم والفنون والحياة.

جُن جنون عبد المجيد وحاول إقناع أمجد بأنه عليه احترامه، ولكن أمجد تمادى في ثورته وأخبره أنه يظن أنه ما هو إلا صعلوك حقيير، وفاق جنون أمجد جنون صانعه، وأخبره أنه يشعر بالصعلكة تسري في دمائه فقط؛ لأنه مصنوع من قبله، وكان يتمنى لنفسه صانعًا له قيمة ومكانة حقيقية وليست بهذا الوهن والزييف.

لم يتمكن عبد المجيد من تحمل هذا الكم من الإهانة، رغم أنه قد تلقى أضعافها طوال حياته، ولكنه أيضًا لم يقدر على إيذاء أمجد، فأطلق صراخه متألمًا مصدومًا حزينًا.

ولم يمر أسبوع حتى عاد أمجد، كان يشعر بالرعب من العالم، ورغم كل شيء كان أمانه الأول مع عبد المجيد، ولكنه وجدته قد مات، لا يعلم هل انتحر أم فقط؛ مات! ولكنه وجد دمية أخرى لا تتحرك، صنعها عبد المجيد، كانت تشبه أمجد لكن أدق وأروع، وعلم أمجد أنه سيعلمها كيف تتحرك، وكيف تعيش، وسيجعلها بالطبع، تبجله كل الإجلال، وتطيعه طاعة عمياء!

ثعبان آخر يتخفى

تركته يلتف حول رقبتها، يلتهم شفيتها، ويلتصق بها، وبالرغم من كل مشاعر التقزز التي أصبحت تملكها وتسيطر على كل حواسها، تلك التي أصبحت تشعر بها نحوه مؤخرًا، لم تستطع أن تنطق ببنت شفة، فهناك عقد مبرم بينهما أن تسمح له بأن يتجول في ثنايا جسدها كلما يحلو له، كان في تلك اللحظة أخضر اللون يصدر فحيحًا، ويلتف حولها بقوة تمنعها من التقاط أنفاسها بحرية، تحملت الدقائق، وبدأت في التنفس حين تركها لينام مصدرًا غطيًا، قامت ببطء، وضعت الكثير من العطر النفاذ لكي تحاول إبعاد رائحته التي التصقت بها.

في مكتبها الصغير في الشركة المغمورة في الصباح بدأت في احتساء قرح من الشاي، تجاهلت نظرات زملائها، تعودت عليها، فلم تعد تثير فيها أي ضيق، أصبحت كحذائها البالي الذي لا تستطيع تبديله، ولم يعد يجعلها تشعر بأي مشكلة حين يسمح بدخول الأتربة إلى قدميها من الجزء الممزق فيه، تظاهرت بأنها تعمل بجدّ إذ بدأت بالتقليب في الدفاتر، سمعت من بعيد موظفتين إحداهما بدينة للغاية تقول للأخرى إنها ترغب في أن تذهب إلى طبيب مختص في الحميات الغذائية، وترد الأخرى ضاحكةً أن عليها أن تتزوج ثعبانًا مثلما فعلت زميلتهما فلانة، فهو يمص دمها كل يوم، ويجعلها مهما تناولت من دهون لا يزيد وزنها.

لم يعد اسم «زوجة الثعبان» يثير فيها أي ضيق، لكن كل مشاكلها أصبحت تقتصر على الاعتراف بأنها أصبحت تراه ثعبانًا كامل الهيئة الثعبانية، أن

تعترف بأن كل من حولها كانوا على حق، وأن سوائله الخضراء اللزجة تكسوها يوميًا، وبأنها تتحمل هذا العذاب فقط كي لا تظهر بمظهر التائبة العائدة إلى حظيرة الإيمان بعد رحلة فقدان للذات.

في الطريق سيرًا على الأقدام للبيت كانت تفكر في الساعتين اللتين ستقضيهما من دونه، ربما كان من الأفضل لو مرت على والدتها المسنة، ستتحمل لسانها السليط لتقضي معها لحظات لا بأس بها، تعرف أنها لن تقدر على التبسم هناك، ولكن تظل تلك اللحظات تذكرها بأيام مضت كان فيها بعض الأمل، وصلت لبيتها القديم، كالعادة تتذكر كل شيء مر بها هنا، وكأن ذاكرتها هي عدو لدود يرفض أن يتركها من دون أن يتسلل إلى خلايا عقلها ليجعلها تكره أي قرار اتخذته، بدءًا من قرار أن تستمر في الحياة وحتى قرارها أن تزور والدتها.

- أهلاً بزوجة الثعبان!

- أهلاً يا أمي.

- ولماذا لم يأت معك؟ أيخاف أن أسبه وألعن أمه كالمرّة السابقة؟ لو كان ذا مروءة لردّ لي الصاع صاعين، ولكنه ثعبان ابن حية، يُدرك أنني أنتظر الفرصة السانحة التي أحرمكما فيها من الميراث.

وضعت حقيبتها، جلست جوارها، قالت:

- عمله ينتهي منه بعد ساعتين يا أمي.

- وماذا بك؟ وكأنك قادمة من مجاعة!

- أنا بخير لا تقلقي.

- لستُ قلقة! ولكن مظهركِ يوحي وكأنكِ أتيتِ للتو من رحلة شحاذة، ما هذه الملابس وكيف تخرجين من بيتكِ بهذا الحذاء.

- إنها فقط ملابس من أجل العمل يا أمي، لكيلا أُبلي الملابس الأخرى الجديدة الفاخرة.

تكذب كالعادة، والكل يعرف أنها تكذب، تقول أمها:

- ألن تكفي عن الكذب علينا؟ ادخلي غرفتي واجلبي لي حقيبتتي البنية.. هيا.

تدخل دون كثير من اللغط، تجد الحقيبة مفتوحة وبها رزمة مالية، تجلبها كما هي، تعطيها أمها بعض المال، لا تتمنع، غريبة! لا ترفض حتى في البداية ككل مرة، تأخذ المال وتدسه في حقيبتها، ترحل في صمت، وتلمح في عين والدتها حنانًا وحرزًا كانت تلمحه قديمًا، تتمنى لو تلتقط لها صورة وهي بتلك الملامح؛ لأنها كثيرًا ما تفقد القدرة على تذكرها حين تواجه أمرًا عصيبًا وتتمنى أن تستحضر لمحة أي شعور فيه حلاوة وجهته إليها يومًا ما، من فرط ندرة هذا الوجه الحاني أصبح لديها كذكرى لا يمكن تذكرها.

تشتري بالمال بعض اللحم، سريعًا تعود للبيت وتشرع في طبخه، يدخل الثعبان، تراه بنصف جسد آدمي، تتنفس الصعداء، ليس ثعبانًا كما يقولون عنه، وهي المحقة، وهي تراه ثعبانًا فقط من تأثير الهلوسة التي أصبحت تنتابها نتيجة لنبذ العالم كله لها بعد أن اختارته، كلهم يكرهونها، ابتسمت في وجهه النصف آدمي، وقالت له إن لديهم لحمًا اليوم على الغذاء، ابتسم لها

فتحول وجهه كله إلى الوجه القديم، الذي قال لها إن حياته معها ستكون هي الجنة، تركت اللحم وهرولت نحوه لتقبله سريعًا قبل أن يبدأ في التحول، وما أن اقتربت منه حتى تحول كله إلى ثعبان يفتح فاه استعدادًا لقدمها، وحين أحجمت نفث بعض سمومه في وجهها.

في مرحلة المراهقة عشقت القراءة في الأمور الغيبية والسحر والجن، كانت تحب أن تصاب بحالة من الرجفة المرعبة، وأن تحلم بالكوابيس بعد تلك القراءات، ورغم اعتقادها أنها قد تبهرت في تلك الحكايات الخرافية فإنها لم تقرأ أبدًا عن أمر كهذا!

وحين تقدم إلى خطبتها كانت تسترق النظر من خلف الستائر وتراه يجلس متوترًا متحمسًا يشرح لأبيها خططه في الحياة، بعيونٍ عسلية وشعر بني ناعم، رشيق القوام طويل، ذي صوت رجولي عميق، وحب للحياة ينتقل لمن حوله، هكذا كانت تراه وهكذا وصفته لأسرتها، ولكن نظرة الرعب في عيني والدها لم تجد لها تفسيرًا إلا حين دخلت والدتها إليهم وصرخت:

- ثعبان! فليحضر أحدٌ منكم حذاءً كبيرًا لنقتله.

بحثت عن الثعبان لم تجده، بينما قال أبوها هامسًا:

- إنه كبير جدًا على أن نقتله سحقًا بالأحذية، كما أنه يطمع في الزواج من ابنتنا!

وفي المساء قالت لها أمها:

- كيف ترغبين في الزواج من ثعبان!

بكت كثيرًا، لم يرق قلب أحدهم لها، حاولت أن تطلب عون الأعمام، تعرف تأثيرهم على أبيها، ولكنهم وقفوا أيضًا ضد رغبتها المجنونة، صرخت .. إنها تراه رجلًا عظيمًا رومانسيًا، كلماته كالفضة تتلألأ لحظة انصهارها، نظراته ترسل إليها عبيرًا يدفعها في لحظات البرد، ويسري عنها قيظ الصيف، بينما حاول الجميع إقناعها بأنه ثعبان كبير قبيح!

في ليلة ظلماء تركت البيت، ذهبت للمبيت عند صديقة لها، كانت صديقتها هي الوحيدة التي ترى عيونه العسلية وتسمع كلماته المعسولة، بعد مشاورات وشجارات عادت منتصرة على وعد بأن يقبلوا زواجها منه، ولكن دون أن يتدخلوا في أي أمر يخصها فيما بعد، وأن تخرج من حياتهم إلى الأبد بعد تلك الزيجة.

ارتدت ثوب الزفاف وقلبها يطير من فرحة مشوبة بشعور جارف بالحرية، وصوت داخلي يوسوس لها بأنها أخيرًا حققت شيئًا بإرادتها الحرة، تزوجت شخصًا اختارته، وأحبته، وبينما بدا لها كأوسم من أي يوم مضى بدا لكل أقاربها أقبح من أي لحظة رأوا فيها ثعبانًا يرقص ببذلة سوداء مع فتاة جميلة في إعلان لزواجهما.

تذكر أول مرة بدأت تراه فيها بحراشيف خضراء كانت بعد أسابيع، حاولت أن تنكر أنها رآته يتحول إلى اللون الأخضر، خاصة حين عاد لطبيعته، وظنت أن تلك الهلاوس هي نتيجة لتحولها إلى منبوذة في العائلة ووسط زملاء العمل، وحين يعود لهيئته التي تعرفها تحاول أن تطمئن بأنها كانت على صواب، من غير المعقول أن يكون الجميع كانوا على حق بينما هي فقط المخطئة!

ولكن حين مرت الشهور وأصبح معظم الوقت في هيئة الثعبان كامل الملامح تحولت حياتها إلى جحيم، حاولت استرجاع علاقاتها بأهلها، عادت ولكن بفتور، بينما لم يتقبلوا الفكرة أبدًا، ولم يكفوا عن قول إنها زوجة الثعبان التي ستنجب ثعابين صغيرة.

بحثت عن حالة مماثلة في العلم لم تجد، ذهبت إلى دجال يزعم أنه خبير روحاني أخذ منها خاتمها الذهبي الأخير مقابل الكثير من الأبخرة والزيوت، تجربتها بلا فائدة، بل وطلبت منه أن يذهب معها إلى طبيب يشخص حالته، وكان ذلك يومًا آخر من الأيام التي تلقت فيها ضربات لا تحصى جعلتها طريحة الأرض حتى الصباح.

طلب منها أن تزور طبيب النساء لتعرف سبب تأخر حملها في ثعابين يحملون اسم عائلته، ذهبت بلا تفكير، أصبحت كل تحركاتها بلا أي نوع من التفكير وتحولت إلى دمية تنفذ الأوامر بلا أدنى محاولة للاعتراض، وحين أخبرتها الطبيبة باستحالة أن تنجب لم تفرح، لم تحزن، لم تتأثر بأي نوع من المشاعر، عادت إليه وأخبرته، غضب غضبًا شديدًا وتوعدها بالزواج من أخرى، وردد كلمات غاضبة أنه قد تم خداعه في تلك الزيجة، وأنه لم يحظ بأي شيء من أموال أسرتها ولا نفوذهم، وكل ذلك لأنهم يرونه ثعبانًا!

كان في تلك اللحظة كامل الهيئة الثعبانية، يُصدر فحيحًا مقززًا مع الكلمات، وتتطاير من شدقيه سوائل لزجة بدت لها سامة، قامت في هدوء لتنام، لم يتركها إلا بعد أن أخذ منها كل طاقتها بعنفٍ، اعتقدت أنها كالعادة قد تحولت إلى الشلل لفترة تستعيد فيها قوتها، ولكنها قامت بعد أن ارتفع غطيته وذهبت إلى المطبخ، عادت بسكين ضخم وحين غرسته في رقبتة ذات

الحراشيف انبثق الدم الغزير، وفي أقل من دقيقة تحول إلى هيئة إنسانية كاملة.

في المحكمة قبل حُكم الإعدام صرخت للمرة الأولى والأخيرة أنه ثعبان! وأن كل من حولها يراه ثعبان! خاطبت والدتها كيف تلومها على قتل ثعبان؟ رأت دموعها صامتة دون كلمات، قال أبوها: «إنه زوجكٍ مهما كان! كيف تحولت ابنتي إلى قاتلة؟» كادت أن تفقد صوابها أمام إنكارهم صفته الثعبانية فقط لأنه أصبح قتيلاً! ألم يرغباً في قتله من قبل؟ لماذا حين نفذت فيه الحكم الذي تأخر كثيراً لم يتعاطف معها أحدٌ؟ لماذا لا يخبرون هيئة المحكمة أنه ما هو إلا ثعبان!

وتغيّر لونُ السماء

على رصيف مهشّم عرض عليها سيجارة، كانت شاردة وقد بدأت قدماها في التملل من تلك الجلسة، فلم تلاحظ يده الممدودة، نقر على كتفها بها فانتبهت وأخذتها بلا وعي، ضحك:

- ستدخينين أخيراً؟

بدأ يسحب بساط تركيزها، فتمتت باسمه:

- آسفة، لم أنتبه خذها قد تنفعل أنت!

فجأة فكرت، كم تغيّر، وكم تغيّرت. كان أقرب ثلاثة إليها يجلسون حولها، هؤلاء الذين لا يشبهونها إلا في طريقة الوصول إلى النتائج ذاتها. أصدقاء ما جمعهم إلا وحدة التفكير، اختلفت ظروفهم ولكن تشابهت مشاعرهم، لو قابلتهم في فترة المراهقة ما تخيلت أن يصبحوا أقرب إليها من الأهل.

فكرت، متى يأتي التغيير؟ على غفلة أم تدريجيّاً؟ قامت متحمسة، نادراً ما تتحمس، ونظرت في وجوههم الواجمة وهم جالسون، وقفت أمامهم تسألهم:

- متى بدأ التغيير؟

لم يرد أحد، كانوا في عالم آخر، صاحت وهي تصفق جذلاً:

- انتبهوا أفيقوا، حلقة نقاش ستبدأ الآن!

نظر الجميع فقالت:

- ها، متى بدأ التغيير؟

فاجأها بسرعة رده وهو يدخن وكأنه كان ينتظر السؤال:

«تغيرت أنا منذ فترة، في ذلك اليوم الذي عرفت فيه حقيقة نفسي، يوم انكسر غروري أسفل هراواتهم وضرباتهم المتلاحقة، عرفت أنني لا أساوي ثمن حذائي الذي أهدتني إياه أختي حين عادت من الخارج تحمل شهادة الدكتوراه، يوم احتفلنا بها كنت سعيدًا بالحذاء الذي أعلم أنه قد يرافقني لعشر سنوات، حذاء من خامات تتحمل الصدمات حتى إن اسمه «safety» أي الآمن. سيجلب لي الأمن والأمان، لن أضطر لشراء غيره، ثمه ليس خسارة رغم أنه يساوي أضعاف راتبي. يومها أتذكرين؟ كنت أرتديه وسط الحفل وأضحك وأجري خلف الأطفال أخيفهم به: لو ضربتكم بحذائي الآمن سأصنع في جلودكم علامات. وقمت بركل كرسي الصالون لأريكم جميعًا أنه لن يُخدش. لا تنظري لي هكذا، كان الخدش الذي أحدثته تلك الركلة الحمقاء صغيرًا، أصغر من خدش روعي حين خلعه من قدمي وألقوه بعيدًا؛ لتتعري لهم أقدامي النحيلة ويستطيعون ضربني بحرية.»

ضحك بعذوبة وهو يضيف:

«لا لم يكن لا آمن ولا فيه أي ذرة من أمان، لا الحذاء ولا الجدران ولا مزلاج الباب الحديدي على بوابة بيتنا.»

التفتت صديقتها الثانية إليه وعلى وجهها بسمه حانية:

«أمان؟ مضحك أنت، لا أمان يا حبيبي، لا راحة. هناك فرحة ربما، قصيرة، ولكن لا أمان ولا سلام داخلي، انس، أين تظن نفسك؟ في مزرعة لجمع الفراولة بأستراليا؟ أنت بالشرق الأوسط يا عيوني، مسكين؟ لا لست مسكينًا، كَفَّ عن لعب دور الضحية، ألا تؤمن بتناسخ الأرواح وحلول الأجداد فينا؟ آسفة لقد نسيت! أنت لا تؤمن بالخرافات، ولكن صدقني أخطاء وغباوات الأجيال السابقة هي أخطاؤنا نحن أيضًا، وإلا لماذا نطالب بحقهم بعد مرور عقود على وفاتهم؟ أتريد ميراثك منهم دون أن تدفع ديونهم؟»

ثم نظرت إليها وقالت:

«تسأليني متى تغيرت؟ وراحت مني تلك الروح؟ كلنا عندنا لحظة انتقال من البلاهة إلى الذهول! لحظة تفتح فكيك فيها وتجحظ عينك ولا تدري ما هذا! لماذا؟ تريدني أن أتذكر تلك اللحظة بالضبط والسبب فيها؟ عندي أكثر من لحظة، أولها لحظة الميلاد الغبية الذي أدركت فيها أنني انتهيت، صرت منكم ويا لمأساتي، سأعيش مسرحياتكم كاملة وشهواتكم بحذافيرها ومخاوفكم بعشيتها بلا زيادة أو نقصان.

تلتها تلك اللحظة التي تركوني أهلي مع الغرباء، لا تتشتتي وتفقدني خيط قصتي، أنا أقصد أول يوم في المدرسة! لا لم يعذبني أحدٌ ولم يحرمني أحدٌ من أي شيء ولكن ضاع مني الأمان أن غدًا يوم جميل، أصبح غدٌ هو الهم بالنسبة لي من وقتها.

وبعدها؟ أنتِ تعلمين! لحظة وضعي في غرفة وحدي لأتأدب، لأكف، لأصمت، وقتها وصل الذهول منتهاه، أسموه سجنًا أو معتقلًا أو أسرًا، أسموه حكم محكمة، أسموه ما أسموه عليهم أسمى اللعنات، لحظة تحكم الآخرين في مصيري، حتى لحظة خروجي كنت ذاهلة وودت أن أبقى بالغرفة الضيقة الرطبة، أن أقرر مساري وحدي، هل نجحت؟ لا بالقطع لا»

نظرت إلى رابعهم وكانت تفكر فيه منذ البداية، لو تحدث لكان هذا نصرًا لها، قالت:

- وأنت؟ أليس عندك لحظة تغيير؟

لم يرد.

كادت أن تياس من صمته ولكنها صبرت، فليتدبر كلماته، قال بصوتٍ خفيض يكاد أن تكون نبرته كافية لوصول ما بداخله إليهم:

«يومَ رأيثُ جموعَ الناس تحتشد بلا توقف عن الزيادة، كتلة بشرية تزداد حجمًا كل دقيقة، يومها نظرت للأعلى، تعرفين أن طولي يسمح لي بالتنفس وسط أي جمع من البشر بحرية، وأن أراهم من جميع الاتجاهات، حين نظرت فوقهم شعرت أن عنقي يطول ويصل حد السماء التي تغير لونها في عيني، مررت بجوار متجر كان به مرآة، سارعت إليها وأنا الذي كنت أكرهها، وجدت ملامحي قد تغيرت بالكامل، ألواني صارت مختلفة وعيوني هي عيون شخص آخر.

هل كانت الأشجار خضراء؟ الشمس ما كان لونها؟ أكنت مصابًا بعمى الألوان حتى إنني شفيت منه بعلاج قبائلي غريب، وهو أن أرى أهل بلادي يتوحدون ويهتفون وبحقهم يطالبون؟ لماذا لم يصف لي طبيب العيون هذا الدواء من قبل، لم يكن يعرفه لأنهم لم يجربوه في العقود السابقة بهذا الشكل، المساكين، جيل آبائنا عاش بعمى الألوان ولم يُرَّ إلا نصفها، كانت على عينيه غمامة أصابتهم بعشى ليلي ونهاري، طبعًا لا تصلح كل العلاجات لكل الأعمار، ولا أنواع العيون، هناك من ضمرت عينه للأبد وانتهى أمره.

تغيرت حين علمت أن عيني لم تضر بعد، وأنها قادرة على رؤية تغير كاسح في بلدي، أن ترى الجمال هنا في تلك الأرض وفي تلك النفوس الذي ظننت أنها قد ماتت، بكيت؟ نعم انهرت من البكاء فرحًا، لماذا كانت لحظات التغيير بالنسبة إليكم هي لحظات بؤس وشقاء؟ لقد كانت بالنسبة لي هي يوم مولدي الحقيقي! لا تنظروا لي مشفقين يا مجانيين يا أغبياء يا مدعي العلم! نعم لازلت سعيدًا بتلك اللحظة وهي ما أصابني بإدمان الفرحة حين سرت في عروقي، صمتي الآن وهواني هو لأنني أعاني أعراضًا انسحابية من هروب مخدر السعادة من دمي بعد أن أدركت أن السعادة كانت وقتية، والحصول الدائم عليها يحتاج مثابرة لم تكن في الحسبان.»

«وأنتِ أَلنِ تذكري لنا لحظات التغيير؟ التبديل؟ حين لم تعودِي أنتِ وعلمتي أنها بداية لروح أخرى تسكنكِ؟»

كان يقولها هازئًا؛ لأنه يعلم لحظتها جيدًا، لحظة فقدتها لأول عزيز عليها، ذلك الذي كان خامسهم، ولكنها قالت بخفوت أنها ستحدث لاحقًا، فكرت قليلًا أم الآن؟ ولما التأجيل! لقد أجلت أن تبوح له بأي شيء حتى رحل! لن تبوح حتى أمام من كانوا رفاقه خوفًا من ماذا؟ خوفًا وهيبة من الاعتراف؟! كلهم يعلمون، يُخفون أنهم يعلمون. يتظاهرون بعكس ما يبطنون؟ حسنًا فلينتهي زمن التخفي، فتحت الصندوق الأسود وقالت:

«قديمًا كنت أكره أن أشرككم في ذلك، ولكن كره الأشياء وحبها قد تغير تمامًا في مفاهيمي، كل شيء تغير. متى تغير كل شيء؟»

نعم يوم فقدته، يوم راح بلا رجعة، يوم أخبروني أنه هناك، في عالم آخر كل معلوماتنا عنه من إيماننا الذي يأتينا من الأجداد، يوم أصبحت أتساءل يوميًا وكل لحظة هل لو مث الآن سأذهب إليه وتراه عيني فورًا؟ أم سأنتظر حتى أستقر في عوالم الأموات وأبحث عنه وسطهم، هل سيكون البحث سهلًا لتمتعنا بالشفافية هناك أم ستظل الصعوبات تلاحقني أم أنني أهذي وانتهى الأمر ولن أراه لا هنا، ولا هناك.»

تنهدت، تلاشى المشهد الحالي من أمامها، وجدت نفسها تقول:

«حسنًا ها أنا أبوح لك، هل تسمعي؟ لن أخجل أن أبثك ولعي بك، في العالم الآخر لا يوجد خجل! لن أخفي نصف هلي عليك، سأخبرك أخيرًا بكل شيء، سأكف عن تصنع نصف الاهتمام ... لن أخاف أن تقول عني متيمة بك، فتبتعد عني بحثًا عن أخرى لم تهب روحها لك لتبحث عن الصعب بعد ضمانك للسهل.»

هناك سأمنحك أنا الواهنة الضعيفة القوة وسأمسح عنك الخوف، الخوف من الوحدة، من الألم والنبذ والضياع، سأهديك أنا الخائفة على الدوام الأمان، ستأمن من البعاد عن أحبابك وستراهم في عيوني، سأسمح لك أن تتشبث بي كأيام تشبثك بثوب أمك باليمنى وباليد الأخرى بلعبتك الصغيرة البريئة التي لا تختلف عن أي لعبة أخرى سوى أنها لعبتك الحبيبة التي أصبحت جزءًا منك أنت، قد تكون أقل جودة وروعة من الألعاب المعروضة في المحلات بألوان باهتة، ولكنك تتشبث بها لأنها أخذت جزءًا من روحك الشجية الباحثة عن الحنان والدفء.

لا يمكن أن تفكر أنني جننت حين أقول لك تعال هنا عندي، هناك يفهمون المشاعر دون التفكير في أنها تعني فساد الأخلاق، ستدرك أنني فقط أسعى لأن أعطيك ما قررت أنه ليس إلا لك، أن أسلمك باسمه حانية مفاتيح نفسي، أنا التي لم تعاني ولم تذق الفقر والجوع والمرض ولم أفقد عزيزًا قبلك، سأنسيك كل ما مررت به حين كنت تعافر وحدك بحثًا عن الضحكة وعن هناء في أرض الظلم.

سأكتب لك هنا شهادة ميلاد وسأمحو من عينيك تلك النظرة الخجولة المكسورة اليتيمة، فقط سأعطيك البداية التي تستحقها ولن آسرك بعدها وأنا أعلم أنك خلقت تلهث خلف الحرية، سأتركك تجد مسارك ولو كان بعيدًا عني لن أولم قلبك بحزني على فراقك لي وسأعتبره فراق رضيع كان بائسًا محتاجًا لأحضان أمه تركها حين شب وقام ولكن ظل مديئًا لها بأنها أحسنت رسم بداياته.

ولكن يظل حلمي مؤجلاً باللحظة التي أسافر فيها إليك، قلقاً أن تتلقفك غيري
ممن يتقن فنون الجذب، وتستمر مخاوفي تراودني ألا أحقق أحلامي فيك.»

صمتوا! ما توقعوا أن تتحدث بتلك النبرة، نبرة أمل؟ أحلامها أصبحت في
عالم الموتى تتجسد؟

قاطعت صمتهم قائلة وقد شاءت أن تذكر كل شيء دفعة واحدة:

«وهناك يوم آخر غيرني، لكنه يوم حلو عذباته وحيرته كانت كالخدر الجميل
يسري في دمي، يوم قابلته بعد سنوات من معرفتي به، أتذكرون كم كان
مشهوراً وكنت أنا صغيرة أبدأ مشواري كعميدة في الجامعة بحماس؟ نعم
يوم الندوة أنا التي اقترحت اسمه، كنت أعلم أنني قابلة للتعلق به فقط من
كلماته التي أقرؤها له في جرائد الرأي الحر المعدودة، نعم روح الإنسان
تنساب في كلماته المكتوبة ويشعر بها القارئ وكأنه يستحضر كاتبها ليجلس
معه، ليست مراهقة مني صدقوني، عشاق الكلمة يعرفون ماذا أقصد، كلمات
الكاتب تصنع علاقة بينه وبين القارئ لا تنفصل، تجعل القارئ حين يشاهد
كاتباً يفضله في حالة من الذهول، حين قابلته تقمصتني تلك الحالة مع حالة
أخرى من العبث.

يومها تلاعبت بي مخيلتي الخصبة وتداعى إلى ذهني دقة وصفه
للحسناوات وبراعته في تصويرهن كآلهة للجمال، لم يكن هذا يزعجني حين
كنت أقرأه في كتبه، ولكن حين قابلني لمحت نظرتة الفاحصة فارتبكت

وتذكرت أنه لا تفوته شاردة ولا واردة، تلعثمت وعلى وجهي ابتسامة غاية في الخجل، أنا التي تقف تحاضر أمام المئات ولا يرتعش لي جفن.

فكرت في نقاط قوتي لأكتسب بعض الثقة فوجدت أنني لا ساحرة ولا فاتنة، جمالي كله في لفتاتي وضحكتي الخجولة حين أنظر بعيداً، في قوامي الضئيل الذي يميزه انحناءات وثنيات أنثوية رقيقة يحبها الرجال، وبينما أخبئ بعناية شعري الجميل تظهر في عيني براءة محببة تختلط مع نظرة حنان جارفة، فقط! لا جمال باهر، لا فتنة طاغية، لست واحدة ممن يشهقن لها ولكن لي سحري الخاص الذي يتسلل إلى القلوب بعد لحظات من الحديث معي، حاولت إرضاء غروري، فانكسر أكثر أمام نظراته الواثقة الهادئة، بعد أعوام من معرفتي به لم أقل له إنه منحني الكثير فقط بحديثه معي في تلك الأيام الساحرة، كان ينظر في عيني مباشرة فيكسبني فوراً أهم ما كان ينقصني، شعوراً فورياً بالأمان، كنت أظن أن هذا الرجل يحميني بنظراته فقط! يكفي أن أرى نظراته تلك في صورة له ليغمرنني هذا الشعور.

لم أقل له إنك أخذت مني عجرتي واقتناعي أنه أبداً لن يهزمني أحد حد التفریط في هدوء نفسي الداخلية، جعلتني مريضة بالقلق عليك، وبتمني السعادة لك، وبالرغبة في أن أكون أجمل النساء، سحبت بساط ثقتي بنفسي بخفة ومهارة وجعلت نظراتك التي تشعرني بالحماية تشعرني في الوقت ذاته بالارتباك خوفاً ألا أكون قد نلت إعجابك،

هل لو كنت أخبرته لفاجأته صراحتي واعترافاتي الخطيرة؟ أتخيله يضحك ضحكة عالية كان من النادر أن أراه يضحكها، كانت تروقه دعاباتي دوماً، ولكن أقصى تعبيراته كانت بسمة عريضة يتبعها نظرة للأرض يرفع رأسه

بعدها ليعيد النظر في عيني، عيني العادية السوداء الكحيلة، ليست كعيون
الإيطاليات الواسعة ولا الهنديات المها ولا العيون الفرنسية التي كان يعشقها
ذات اللون الأكثر صفاء من بحر لم يمسه بشر، هذا كان وصفه لها فكيف
سيصف عيوني أنا التي لا تختلف عن عيون أغلب بنات بلدي؟ هل كان من
الممكن أن أخبره أنني لا أحب أن يصف أحدهم عيني بالجميلة الساحرة ولكن
يأسرني أن يصفها بالحانية؟

تلك الأفكار حولتني إلى بلهاء أمامه تضحك بلا تحفظ تتحدث بلا تفكير،
أكثر الهروب من نظراته المعتدية على تفاصيلي والتي كنت أخشى أن
تظلمني وتضعني في خانة العاديات اللواتي لا يستحقن أن يفرد لهن
صفحات الوصف.

كنت أرى أنني أستحق كل جميل، ولكن لا أعلم إن كنت أستحقه هو بالتحديد
أم لا، لم أتمناه أصلاً ولم أفكر في ذلك ولو للحظة، كان في نظري جواداً
جامحاً يرفض السرج، فلم أتمنى أن أكون أنا قيده.

وها قد رحل الجواد بعيداً، أخذوه في غيابات الجب حتى ادعوا انتحاره، رمزُ
ألمي وحبتي للحياة، فماذا تنتظرون مني...»

على الرصيف المهشم استمرت جلستهم، قام من كان أكثرهم صمتاً لأول مرة
منذ فترة، تحرك قليلاً، دار حولهم. قال لهم فجأة وبسمة بلهاء طفولية على
شفتيه «أترون السماء؟»

لم يردوا.

قال «انتظروا أنا لا أهذي، أقسم أن لونها في عيني لم يتغير من ذلك اليوم، أدرك أن وقتها كان نهارًا ساطعًا، أدرك أن عيوني ألمتني حين أجبرتها على النظر في سطوع الشمس في تلك اللحظة، ولكن أقسم، حتى وهي كاحلة في ليلتنا الطويلة هذه لازلت أرى لونها مشرقًا»

حماسه المستجد جعلهم يرفعون رؤوسهم، استلقت هي على الرصيف عقب كلماته، حتى ترى السماء بشكلٍ أفقي، بدأت النجوم تظهر أوضح! بكت؟ لا! شعرت أنها معه، معهم، هناك! هنا على الأرض يوجد تغيير، ولكنه يحتاج مزيدًا من النظر للون السماء الجديد.

هُم الآخرون

بصوت خفيضٍ قال الأب:

- بدأت أشعر أنهم بالفعل يكرهونا.

التفتت إليه الأم وردت:

- كنت أعتقد أنهم لا يشعرون بوجودنا من الأصل.

دخل الابن في الحوار قائلاً:

- ما أدراكي أنتِ! نحن من يضطر للاختلاط بهم يوميًا في العمل والجامعات.

شرد الأب وعاد يردد:

- حقًا يكرهونا.

فاستطرد الابن:

- ويتمنون لو اختفينا ومُتنا وفنينا.

بدا على الأم الارتياح وقالت:

- لماذا كل هذا؟ نحن لم نُؤذهم يومًا!

انفعل الابن وبدأ صوته يرتفع كالصراخ:

- وجودنا سببٌ كافٍ ليشعرهم بالأذى! والخزي والعار.

جاءت الابنة وتسلت للحوار:

- إنهم يأكلونني بأعينهم، ويعتبرونني فريسة سهلة خليعة ساقطة.

وأضافت بصوتٍ هامسٍ خائفٍ يرتجف لم يسمعه سواها:

- وتمتد إليّ أيديهم ليلاً ونهاراً، إنهم كابوش لا ينتهي.

فتحمس الابن وهو يقول:

- ماذا لو هاجرنا فعلاً؟ أليس ذلك أفضل الحلول؟

قالت الأم بخوف:

- وهل هناك سيتقبلوننا؟ نحن الغرباء في كل مكان.

فازدادت في وجه الأب علامات الحزن العميق الذي تأصل في ملامحه ولم يعد يلفت الأنظار، ثم قال بوهن:

- لن أترك مكاناً وُلدت فيه، سأموت على سلم تلك الطائرة التي ستنقلني إلى أرض الغرباء.

تمتم الابن بتوتر:

- نحن غرباء يا أبي هنا أيضاً، شئت أم أبيت تلك لم تعد أرضنا.

فقال الأب غاضبًا:

- لا تنطق هذا مطلقًا! بل هي أرضنا لكنهم احتلوها بثقلهم وجهلهم، تحملناهم سنين ولن يضيرنا أن نتحمل المزيد.

ردت الأم وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنهم لتخفي عبارات انسكبت رغم كبتها طويلاً:

- لا تمزحوا، لن أقبل أن أعيش في غربة أقوى من غربتي التي عشتها طوال حياتي، تزوجت أبوكم وأتيت لأعيش هنا معه ومن يومها لم يغمض لي جفنٌ من الخوف.

الابنة بنبرة حزينة:

- أول مرة أسمعك تقولين هذا يا أمي! كنت أظنك سعيدة معنا!

الأب وقد ظهرت عليه علامات اليأس:

- هم أيضًا يظنوننا سعداء معهم. نضحك صباحًا في وجوههم، ثم نجلس وحدنا ونقلب شاشات التلفاز التي تمتلئ بوجوههم، فنكاد أن نفرغ ما في بطوننا تقززًا منهم.

- الأم: لكن منهم المنصفين.

- الابن: لا لم يخلق بعد!

- الابنة: كان لي في الماضي أصدقاء منهم، كنا لا نفترق، فرقتنا الأيام لا الأحداث.

- الابن: كنتم تخادعون أنفسكم.

- الأب: لكن كنا نضحك ونبكي معًا على الأشياء ذاتها، كانوا يبتسمون حين يروني فقط، كانت مودتهم من القلب.

- الابن: وما تخفي صدورهم أكبر.

- الابنة: لكن ... في الماضي نسيت أننا لسنا منهم.

- الأم: وأنا تمنيت أن ينسوا هم كذلك.

- الابنة: لقد وصل بي الأمر أن تمنيت أن أكون منهم، لم يسامحوني مطلقًا على كوني مختلفة عنهم.

- الابن: بل تمونوا الفتك بك والتشفي فيك.

- الأب: هل يكرهوننا بنفس القدر الذي نكرههم به؟

- الأم: هل نكرههم حقًا! اعتقدت طوال عمري أنهم هم البادئون.

- الابن: أنهم هذا النقاش العقيم اليومي الذي يحدث بعد كل حدث جسيم، لا بد من حل جذري، نقلهم ونعيش وحدنا في أرضنا.

- الأب: ومنذ متى كان العنف هو كل ما نفكر فيه، وهم يدعون أنها أيضًا أرضهم.

- الابنة برعب: ماذا لو كانوا على حق؟

- الابن: لكنهم قتلة سفاحون سفاكون للدماء!

- الأم بتردد: ومنا أيضًا من حاول التخلص منهم، فسفك الدماء.

- الابن: أتحاولون أن تكونوا منصفين مع من يتمنى هلاككم كل ساعة!

- الأب: بل أحاول جاهدًا ألا أكون صورة طبق الأصل منهم، ألا أفعل بالضبط ما كرهته فيهم!

- الابنة: قديمًا كانت لي صديقة منهم، نسخة طبق الأصل مني واعتقد الجميع أننا شقيقتان، وكان ذلك يضحكنا، ويسعدنا.

- الابن: الآن لو رأيتهما ستجدينها قد عادت لتشبههم.

- الابنة: كيف هذا وقد كان لها ملامحي نفسها، اللون القمحي والعيون البنية، والشعر الأسود المجدول في ضفائر حتى نهاية الظهر.

- الابن: لا أعلم ... لكل قاعدة شواذ.

- الأم: من جعلها قاعدة يا بني، ربما كنا مخطئين.

- الابن: أي أنكم ستعيشون هكذا بقية عمركم! لا لن أحتمل المهانة وسأهاجر.
سأهاجر حتى لو سافرت وحدي.

- الأب: ستظل وحدك غريبًا.

- الأم: ستسير أبدًا بعيدًا.

- الابنة: لن تعرف أصلك بعد الآن.

- الابن وقد بلغ غضبه حد الجنون: وهل تعرفون أنتم أصولكم؟ لا أحد يعرف شيئًا، ربما كانت أصولنا منهم، نعم لقد كان جدنا واحدًا بلا شك، وإلا فيما تفسرون تشابهنا المطلق في الملامح.

- الأب: وفي العنف وفي العصبية.

- الأم باسمه: وفي النكات والفكاهة.

- الأب: وفي حب الأرض نفسها.

- الابن: نعم حب الأرض، تشاجرنا عليها حتى لفظتنا جميعًا وكرهتنا.

- الأم: لما لا تقل إننا نحن من كرهناها، والدليل أنك ستبحث عن غيرها.

- الابن منهارًا: بل هي من كرهتني وأعطتهم هم كل شيء، ملكتهم إياها وتركتني أظلم فيها.

- الابنة: آه لو أحبونا.

- الأم: لو تركونا نعيش معهم وقسموا الخير علينا.

- الأب وقد بدت الحيرة في وجهه عظيمة: وهل لو كنا مكانهم ل فعلنا ذلك.

- الابن شارداً: ربما...

- الابنة هامةً: لست متأكدة.

- الأم: حقاً إنها لمعضلة!

فهل أعود

وجد تلك الرسالة منها، قد تم إرسالها منذ ساعة حين كان في الاجتماع:

«لقد شربت زجاجة الكودين كلها. كنت في تلك اللحظة أرغب في الخلاص وبشدة، كانت لحظة مجنونة خرجت فيها عن السيطرة أعترف، ولكنني بعدها بثوانٍ فقدت تلك الرغبة ورحلت عني، فهل يمكن أن أعود؟»

هرول خارجًا من الشركة وهو يحاول الاتصال بها بلا جدوى، كان الهاتف يرن ويرن فقط، نبض قلبه العنيف مع تنفسه السريع جعل رأسه ينفجر بصداحٍ فوري مريع، ولكن ذلك لم يمنعه من ركوب السيارة والقيادة السريعة نحوها، نحو البيت. كان يفقد السيطرة على أعصابه ويشعر أنه سيبدأ بالبكاء الهستيري أو الصراخ أو ضرب رأسه في المقود، ولكنه قرر التماسك، لأول مرة لا ينفجر غاضبًا مجددًا جلبة كالمعتاد.

كان يحاول أن يفكر بشكلٍ منطقي، يحتاج الدواء إلى نصف ساعة ليبدأ في العمل، هكذا قالت الطبيبة حين وصفت هذا الدواء لها كعلاج للسعال منذ عام، يرغب الآن في قتل تلك الطبيبة حين تذكر أنها قالت لها مازحة لا تُكثري من القطرات عن العدد الذي كتبت له؛ لأن هذا الدواء كثرتة تؤدي إلى الوفاة، كاد أن يضرب المقود بيده غاضبًا ولكنه تماسك حين تذكر وكأن هذا هو السبب الوحيد، أمامه ساعة أخرى للوصول إلى البيت. لا بد من حل آخر.

ازداد ارتعاشه، ردي يا سارة، ردد ذلك عدة مرات بصوت خافت، بعد أن توقف في زحام لا يدرك مداه، وراح يفكر في حلٍّ آخر، لا علاقات مع الجيران، لا أقارب في هذا المجمع السكني بتاتًا، أصدقاؤه المقربين لا يزالون في الشركة لا يعلمون شيئًا، لا يوجد شيء اسمه إسعاف أو نجدة في مصر، هل سيفقدها؟

وصل لتلك الفكرة ووصلت معها الرعشة إلى رأسه، سأتماسك، قالها لنفسه، سأنقذها، اللعنة على الاجتماعات، اللعنة على كل شيء جعلها تفكر في هذا، ألم تكن تبالغ حين قالت له: يومًا ما سأقتل نفسي؟ لقد كانت تبتسم، لم يصدق أنها قد تجرؤ على ذلك، لم يتصور ولم يتخيل، مستحيل، ربما لم تفعل؟ لماذا إذن لا ترد على الهاتف.

تذكر على حين غرة، مرة، كانت تبكي وتقول:

- هناك من يحاربني.

قال لها وهو يقلب قنوات التلفاز:

- كفي عن هذا الهراء، أنا معك، لا أحد يقدر على محاربتك.

- إنه جزء من عقلي، ينفصل عني، ويحاربني، يحيل حياتي إلى جحيم.

نظر لها فرأى العبرات فاقترب وقال:

- فقط لا تفكري في هذا، فقط كوني قوية كالمعتاد، كل شيء على ما يرام، حياتنا ممتازة، حاربنا كثيرًا ونجحنا، ما المشكلة؟

- لا مشكلة، المشكلة أنه لا مشكلة؛ ورغم ذلك فأنا أشعر أن هناك عفتًا يأكل خلايا روعي ويجعلني أنهار.

- لن تنهاري، أنا معك.

لم يكن يفهم، ظن أنه بهذا يدعمها بما يكفي، ربما كانت الهرمونات، ربما لم تكن سارة بهذه القوة التي ظنها، وحين قالت مرة إنها قد تنتحر سخر منها، أو مزح معها، أيهما أصح لا يعلم، ربما لم تكن حقًا مستعدة للحمل في هذا الطفل، ماذا لو كانت حقًا تعاني، كيف لم يدرك خطورة الأمر!

الآن هو ضائع تمامًا، يتخيل أنه يقص هذا كله على سارة فيما بعد، بينما يجلسون غدًا أو بعد غد مساءً بلا هدف في الحديقة الصغيرة جدًّا والجميلة جدًّا في بيتهم، كان مصدومًا ووعيه يتسرب منه ببطء، يرفض التصديق، ليس أن سارة قد ترحل عنه إلى الأبد، بل أنها فكرت وقررت وأقدمت على فعل ذلك، وكان يشعر أنه بعيد ولا يقترب نهائيًّا منها، بدا البيت بعيدًا جدًّا، من زمن سحيق جدًّا.

بدأ يشعر بفقدان للسيطرة، ولكنه تماسك حين شعر بأنه يقترب من البيت، حتى رن الهاتف، التقطه سريعًا فإذا بها سارة!

- كريم، أنا آسفة جدًّا، أغشي عليّ، لم أفق إلا الآن. في الحقيقة أفقت ولكن كنت مرهقة جدًّا إلى حد أنني لم أتمكن من الإمساك بالهاتف، لقد شربت الكودين، كانت كميته قليلة ولكنني عدلت عن رأيي، فحاولت أن أفرغ معدتي، أرهقني هذا كثيرًا. لكنني بخير. أنا بخير.

كان يسمعها وهو يقفز فوق الدرج، وحين أنهت كان قد فتح الباب، شعر بأنه قد دلف إلى الجنة، وجدها تجلس منهكة على الأريكة وتبتسم، جلس بجوارها، أخفى وجهه بيديه وبكى بلا انقطاع، لقد عادت، ولكن ربما لن يستطيع هو أن يعود مرة أخرى.

كذبة كل يوم

نساءً نحن .. لكن نعيش بالضبط كما كنا نعيش في فترة المرحلة الثانوية والإعدادية .. الجديد أننا تعودنا مؤخرًا أن ننزل كل يوم تقريبًا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل إلى الشارع أنا وشقيقتي بملابس البيت وبشعرنا الذي تم عقصه إلى الخلف .. يكون كل من بيتنا نيام .. نتسلل تغمرنا نشوى .. نهبط الدرج ثم نفتح باب البناية المغلق من الداخل ونخرج للشارع المظلم الهادئ تمامًا .. في ذلك اليوم كنا في أوائل أبريل .. كان الشتاء يودعنا بنسمات باردة جعلتني أرتجف قليلًا لكن بلا قشعريرة حقيقية ..

كنا متفقتين منذ بدأنا تلك المغامرات اليومية التي لا تهدف إلى أي شيء أننا لو سمعنا صوت اقتراب أي شخص سنهرع للداخل فورًا .. وفي الأصل لو رأنا أحدًا لن نعرفنا .. أنا بالنظارة وليس العدسات اللاصقة .. وشعري لا يراه أحد .. وملابس البيت التي أرتديها هزلية للغاية .. ملابس فتاة في الثانية عشرة من عمرها .. وردية مطبوع عليها صور من أفلام كرتون .. سندريلا والجميلة والوحش ..

يومها بمجرد خروجنا كنا نتهامس حتى لا نوقظ النوم الكامن في الأشياء فسمعنا صوتًا يأتي من إحدى الشرفات .. أسرعنا الخطى نحو العودة وأغلقتنا باب البناية كما كان وحاولنا أن نصعد الدرج بخفة لصوص معتادين على سرقة لحظات من الزمن، ولكن استوقفنا على كل درجة من درجات السلم فتاة تقف وهي تتوجس خيفة أن يكشف أحد أمر تسللها ..

كان هناك فتاة ممتلئة ترتدي رداءً أسود تحته قميص أبيض غاية في الضيق جعل ذراعيها كتلتني شحم ظاهرتين .. طالما وددت أن أعرف لماذا يرتدي المحجبات هذا الشيء لتغطية لون أجسادهن بشكل قبيح .. لكن لم أسألها؛ لأن الموقف كان حساسًا لنا جميعًا .. الفتيات كُنَّ من كل الأعمار .. كانت هناك فتاة مذعورة في السادسة من عمرها تقريبًا ترتدي رداءً أحمر قصيرًا وباللون ذاته حلية في شعرها البني الذي يصل إلى كتفها.. كانت تبكي بصوت مكتوم ولم أتمكن من تهدئتها؛ لأن الموقف أيضًا لم يكن يحتمل أن يتحدث أحدنا فيستيقظ النائمون..

صعدنا أنا وشقيقتي ببطء شديد .. وهناك من كانت تعدو صعودًا .. وأخريات بكل السرعات يصعدن .. ومنهن من تقف مكانها بلا حراك تستمع إلى حفيف الأقدام .. كان الجميع كالسكارى .. وكأنهن لا يرون بعضهن ويعتقدن أن المكان خالٍ .. لا أعلم إن كن هن السابقات أم أنا التي سوف أتحوّل إلى نسخة منهن مع الأيام .. كل ما كنت أعرفه هو أنني كنت أحب تلك الكذبة حتى الإدمان .. وأني لم أكن أنوي التوقف عنها مطلقًا..

الرائعتان

يومها قمت من فراشي أرتجف.. وصوت أمي يأتيني من الصالون يناديني..
ارتديت السترة الصوفية الوردية ذات التطريز السماوي.. ورحت أتمتم
بكلمات تذمر عن قدومنا للإسكندرية في إجازة يناير بينما أصدقائي ذهبوا
إلى أسوان أو إلى شرم الشيخ.. سمعتني جدتي نونا فوبختني وسبتني
بألفاظ عدة.. احمرّ وجهي غضبًا وارتفعت حرارة جسدي وقد استيقظت
بالكامل واختفت آثار النوم من وجهي كلية.. لكن لم أرد.. فسحبتني أمي من
ذراعي وأجلستني على السفرة وهي توبخني؛ لأنني لم أتسحر بعد، فأذان
الفجر سيبدأ بعد نصف ساعة فقط.. فأكلت في صمت وغيظ وأنا أتمنى ألا
أسمع صوتها ثانية.. كانت تشتمني بالإيطالية التي كنت أفهمها بطلاقة.. ولا
أتحدث بها مطلقًا.. وكنت أعلم أن أمي لا تفهم شيئًا لكن تدرك المعنى من
تعبيرات وجه جدتي نونا التي قالت لها إنني صغيرة وليس من المفترض أن
أصوم.. الحوار اليومي ذاته بلا زيادة أو نقصان.. في الأغلب كانت أمي تبتسم
بلا رد.. وأحيانًا كانت توافقها على ذلك وتقول لها إنني لو جعت سأكل وأن
الأمر مجرد تدريب اختياري لي..

كانت جدتي تعشق رمضان في الإسكندرية.. لم أكن أدري لماذا.. حتى حين
كانت تقول إنه يذكرها باحتفالات رأس السنة في شبابها لم أكن أجد ذلك
التشابه.. ما علاقة زينة رمضان وصلاة التراويح الليلية باحتفالات أعياد
الميلاد في أوروبا.. وما وجه الشبه بين الفوانيس العملاقة في كل عمارة
بشجرة الأرز.. كل ذلك كنت أندهش منه.. لكن أن تشبه جدتي أذان المغرب

بأجراس الكنائس فهذا يعد من غرائبها المتعددة.. التي من المفترض أن نصمت أمامها مبتسمين كما علمنا أبي حتى لا تغضب نونا سريعة الغضب..

كنت أراها تقف في التراس بلا حراك لساعات.. وسألتها أكثر من مرة كيف لا تؤلمها قدماها؟ فكانت لا ترد وتتظاهر بعدم رؤيتي من الأصل وعيناها معلقة بالبحر.. وفي مرة قصّت عليّ أنها هي عروس البحر.. وأنهم أخرجوها منه؛ لذا سأجدها غداً ميتة.. يومها لم أستطع أن أنام من الرعب.. ورحت أتقلب في الفراش محدثة خريراً تكرهه نونا حتى تستيقظ ولا تموت.. وحين سبتني لأكف عن هذا اطمأن قلبي.. وفي الصباح وجدت في التراس تراقب أسراب الغربان فوق البحر الهائج.. كان الهواء شديداً.. ولاحظت أنها تخفي كأس مثلجات بالليمون وتأكل منه كل برهة.. فجريت نحوها أصرخ فرحة أنني قد أمسكت بها متلبسة تفطر في رمضان.. وجريت أخبر كل من في المنزل بالقصة حتى جاء أبي ونظر لي نظرة غاضبة وأمرني أن أكف فوراً وإلا حبسني في غرفتي.. وحين نظرت إلى نونا وجدت على وجهها لأول مرة تعبير الخجل.. فخجلت من فعلتي التي خمنت أنها فعلة شنعاء.. رغم أنني كنت قد علمت أن نونا مسيحية حين التفت حولي زميلاتي في المدرسة يسألني عن الصليب المعلق في رقبتها ويضحكون على شعرها الأحمر.. يومها لم أفكر في الأمر وجريت باكية أحتمي بسيارة أبي التي كانت نونا بصحبته فيها بالصدفة.. وكنت أعلم أيضاً أنها كانت تحرص على ألا تأكل أمامنا في نهار رمضان لكن لم أكن قد فهمت الفرق بين كونها تشاركنا وبين أن تكون غير صائمة من الأساس..

أكثر ما كان يزعجني هو مفاجآتها الليلية لي بأن أنزل معها الآن فورًا لنتمشى على الشاطئ.. في البداية كنت أتوسل إليها بأن تنتظر الصباح؛ لأن الجو بارد بشكل لا يحتمل.. فكانت تلبسني السترة الوردية فأبكي لأنها للبيت فقط.. ولكن كالعادة كنت أروض في النهاية وأجد نفسي على الشاطئ ووجنتاي تكادان أن تتجمدا.. فأشعر بنشوة عجيبة والشارع يخلو من البشر والبحر غاضب وليس أمامه من يبث في قلبه الرعب سوانا أنا ونونا.. عندما كنت أصف لها تخيلاتني تلك كانت تسخر مني.. وتقول لي الجو هنا ساخن جدًا مقارنة بجنوا.. جنوا الرائعة.. جنوا الفاتنة.. جنوا العريقة الساحرة.. لم تكن تنطق اسم جنوا إلا ملتصقًا بوصف من تلك الأوصاف..

وحين كبرت قليلاً أدركت أن حبها للإسكندرية نابع أصلاً من حنينها لجنوا.. أي إنه حبُّ مشكوك في أمره ومشبوه.. فانزعجت كثيرًا.. وشعرت بالغيرة.. وقلت لها إن جنوا تلك مدينة الأشباح غير موجودة أصلاً.. وأني قد بحثت عنها في الخريطة فلم أجدها.. وإن الإسكندرية هي الرائعة.. وبالطبع كان يومًا أسودًا في طفولتي التي أعتبرها سعيدة..

أسعد أيامنا هي حين تزورنا ذات الشعر الذهبي.. عمتي ماري.. كان كل أصدقائي في المعادي يتجمعوا عندنا في الفيلا.. فقط ليسمعونها وهي تتكلم.. فهي وباللمعجزة تتكلم العربية مثلنا.. رغم كونها ذهبية الشعر زرقاء العينين.. لم تكن تشبه أبي مطلقًا.. وكنت أشعر أن نونا تحبها أكثر منا لكن كنت ألتمس لها العذر.. كيف لا وهي شقراء طويلة ضاحكة تجلب لنا الشيكولاته العجيبة من أمريكا؟ كانت نونا تجلس معها على فراشي تتسامران وتضحكان.. كنت ألمح ساعتها الشبه الكبير بينهما.. وأصدق أن نونا

كانت جميلة في أيام عزها.. وكنت أصاب بالحزن لأنني لست ملونة مثلها..
قمحية البشرة كأمي سوداء الشعر كأبي.. باختصار كألوان كل المصريين.. بل
وحين أخبر أحدًا أن جدتي إيطالية لا يصدقني ألبتة.. فأسبه بالإيطالية
وأعدو متصورة أن الجميع سيفهم ما قلته..

مرة سألتني أنت إن كانت عمتي ماريا مسلمة أم لا؟.. أتذكر كيف انزعجت
يومها؟ كنت قد أصبحت أشبه أبي في كرهني للأسئلة الفضولية.. رغم ذلك
سألت نونا وقالت لي إن ماريا مسلمة؛ لأنها مثل جدي وأبي.. وأنهم قد اتفقوا
على تسميتها ماريا على اسم مريم العذراء.. وفي نفس الوقت على اسم ماريا
القبطية زوجة الرسول محمد.. لتجمع في قلبها حب كل البشر.. حين نقلت لك
حديث نونا اقترحت أن نسمي ابنتنا الأولى ماريا.. لكنني رفضت خوفًا من أن
لا توافق نونا التي لا تحب تكرار الأسماء في العائلة..

تغير كل شيء حين رحلت ذات الشعر الذهبي.. لون الحياة نفسه أصبح باهتًا..
نونا لم تعد تصر على شيء.. ولا حتى على الذهاب إلى الإسكندرية في
يناير.. حتى الثلجات لم تعد تشعرها بتلك الفرحة الطفولية القديمة.. كثيرًا
ما كانت تناديني بماريا.. وأصبحت تحب أن تتحدث معي بشكل أكبر.. كانت
فقط تتحدث عن جنوا وعن حبيبها القديم.. كنت أخفي غيرتي؛ لأنها لا
تتحدث عن جدي مطلقًا.. وكنت أسمع منها القصص مكررة في نفس المجلس
بصبر..

وأعلم أنها قد يأست من الذهاب إلى هناك.. حيث الجمال والفن.. فأسرتنا
تعتبر متوسطة الحال.. رغم أننا نسكن في فيلا كبيرة.. إلا أنها بنظام الإيجار
القديم.. لا نملك مدخرات تمكننا من السفر إلى الخارج.. الأسعار غاية في

الغلو.. ولم يعد المصريون يتمكنون من التنقل والتنزه في أوروبا كالسابق..
ولولا وجود نونا في حياتي لما كنت قد رأيت أجانب مطلقًا.. وكثيرًا ما كنت
أشعر أننا معزولون بحكم ظروفنا المالية.. مقهورون بحكم كوننا أقل تقدمًا..
وحيث كنت أحاول شرح ذلك لنونا لم تكن تفهمني.. أو بالأحرى كان يغضبها
ذلك وتردد أن المصريين متحضرون ويفهمون في الجمال..

كان الكل قد فطن إلى أنني نسخة من عمتي ماريًا.. نفس القوام وطول الشعر
والعيون الصغيرة المسحوبة.. الفرق كله في الألوان.. فكنت أقول لأمي إن
نونا تحبني حبًا غير صافٍ.. مثل حبها للإسكندرية بالضبط.. بينما كان كل
تفكير أمي ينصب في أنها تتشائم حين تناديني نونا بماريا.. وكان أبي
يسكتها بنظرة يُرجى منها ألا تعلق على كلمات نونا..

اندهشت حين قالت لي إنها تود أن تزور مجمع الأديان في مصر القديمة..
رحبت بالفكرة وقررت أن أصطحبها معي أنا وزملاء الجامعة.. فقد كانت
تكره جلسات الكبار في العائلة وتحب أن تجلس مع أصدقائي أكثر.. كنت
أشعر في عينيها أنها لا تكبر.. وأني أكبر منها في العمر؛ لذا عليّ أن أجاريها
وألّا أسفّه كلامها أبدًا.. وحين ذهبنا إلى الكنيسة المعلقة راحت تصلي وتبكي..
كانت تلك أول مرة تذهب فيها إلى أي كنيسة في مصر.. واندهشت أنها لم
تصر على الذهاب إلى كنيسة كاثوليكية وصلت في كنيسة قبطية
أرثوذكسية.. وفي الطريق راحت تحكي لنا عن أيامها في كاتدرائية سانت
لورانس.. فهمت من حديثها أنها فقط تحب كل قديم؛ لذا أحببت مسجد
السلطان حسن بنفس درجة حبها للكنيسة المعلقة..

كان أبي يشعر بالقلق من كون نونا لم تعد تتحدث إلا عن الماضي وعن شاطئ جنوا، وعن قصة حبها التي اشتعلت معها الحرب العالمية الثانية.. كانت قد بدأت تنسى تقريبًا كل أيامها في مصر.. وبدأت لا تتذكر الأسماء.. وتكثر من الحديث بالإيطالية.. قال الأطباء إن زيارة قصيرة لجنوا قد تفيد في إنعاشها.. فقرر أبي أن يجمع كل مدخراتنا وأن يضحى بالسيارة الصغيرة في سبيل رحلة بحرية وأن نمضي أسبوعًا في الإسكندرية ثم نتبعه بأسبوعٍ في جنوا.. حين سمعتُ هي بذلك عادت ضحكتها تشبه ضحكة عمتي ماريًا نفسها قبل رحيلها.. وراحت تحضر حقيبتها وتعدنا بنزهة العمر في جنوا.. تحمست أنا وأمي بشكل هائل.. وأخيرًا سنرى ساحة دي فيراري في يناير..

الإسكندرية كانت كالعروس في استقبالنا.. ونونا كانت قد تزينت واشترت ملابس جديدة.. ووضعت لأول مرة منذ زمن عطر البحر كما كنتُ أسميه في طفولتي.. كان عطرا منعشًا مُعتقًا برائحة الليمون والمسك الأبيض.. وكان لونه سماوي تمامًا مثل لون الأمواج والسماء.. وأعجبتها التسمية وأصبحت تطلق عليه أيضًا عطر البحر؛ لأنه يذكرها بحبيبها الذي أهداه إليها غير عابئ بقنابل الإنجليز..

قامت الثورة المصرية ونحن في الإسكندرية.. وامتلاً شارع الكورنيش بالدماء.. وتحول نظر نونا من البحر إلى الشباب الذين يهتفون ويستقبلون الرصاص بصدورهم.. وراحت تهتف بالعربية من التراس بالحرية لمصر.. سألتها باسمه إن كانت تحب مصر.. سبتني وهي تقول: كيف لا أحب وطني؟.. أخفيت ضحكتي وأنا أعلم أن ذاكرتها لم تعد كالسابق.. وفي المساء حين سمعت أصوات الرصاص راحت تصرخ بأن الإنجليز سيدمرون جنوا

الجميلة.. جنوا الرائعة.. حاولنا إنعاش ذاكرتها بأننا في الإسكندرية.. فراحت تصرخ بأن الإسكندرية الرائعة ستدمر.. وراحت تنادي فليسقط أعداء الجمال.. مدمرو التاريخ.. كارهو الحضارة.. راح أبي يهدئ من روعها ويخبرها أن الجمال لا يمكن أن يُدمر.. فهدأت قليلاً ونامت..

وفي الصباح اتشحننا بالسواد وعدنا للقاهرة حزاني.. كانت نونا معنا في صندوقها المنقوش الملون كما أوصت..

بعدها بأيام كانت كل كلماتها تتتابع أمامي كموج بحر هادر.. وغمرتني فرحة طفولية حين أدركت أن حبيبها القديم ما هو إلا جدي.. وأنها كانت تحب الإسكندرية فعلاً.. وعندما علمت أنها قد تركت لي زجاجتين من عطر البحر تأكدت أنها كانت تحبني صدقاً..

هل علمت الآن لماذا اخترت أن يكون شهر العسل الخاص بنا رحلة بحرية تبدأ من الإسكندرية إلى جنوا بالذات؟. لأنني يا عزيزي أراها كل يوم تتطلع إلى ما بعد البحر وترجوني أن أزورها في جنوا.. لا لم أجن بعد فلا تبتسم تلك البسمة الهازئة.. نونا في جنوا الآن وعمتي ماريًا معها ينتظرننا ليشاهدانا نقضي هناك رحلة العمر ونحصر أوجه الشبه بين جنوا والإسكندرية.. حتى لو لم تصدق يا عزيزي فأنا أعذرک.. فأنت مشغول دائماً لم تفتح قلبك لبلدان العالم التي تشبه بلدنا، ولم تر بداخلك ذلك الجزء المنير الذي يحتوي على ذاكرة الأجداد والتاريخ.. حتى لو لم تدرك شيئاً عنه فهو موجود.. وستصدقني حين نبدأ رحلتنا..

فلوت وغرباء

تراها تقترب منها مبتسمةً.. راحت تردد لنفسها «متى رأيتها.. متى رأيتها»..
لعلها تتذكر سريعًا.. كانت تدرك أنها كانت تعرفها في يومٍ ما.. ذلك الوجه..
تلك النغزة.. العين الغائرة قليلاً.. ولكن ماذا حدث لتلك الذاكرة الناكرة التي
أبت أن تمدها بمعلوماتٍ كافيةٍ تخفف من سخف هذا الموقف المحرج!
المشكلة أنها كانت قادمةً وهي تبتسم ابتسامة عريضة مرحبةً بشكلٍ مزعج..
ثم مدت يدها منادية باسمها وكأنها عثرت على كنز.. لم تستطع إلا أن تصنعت
الفرحة قائلة:

- كيف حالك..؟

وداخلها تقول:

- من أنتِ؟

ردت الغريبة التي كانت يومًا قريبة.. وكأنها كانت تنتظر أن تفتح فمها لكي لا
تغلقه ثانية:

- أنا بخير.. تزوجت وأنجبت طفلاً.. اسمه فريد.. الأسماء القديمة عادت
موضة.. انظري صورته (تُخرج هاتفها المحمول بحركة سنيمائية).. قبل أن
ألدهُ كنتُ أعمل في شركةٍ مقاولات..

هل هي مهندسة؟ لو سألت لبدا عليها أنها لا تعرفها.. فليستمر التصنع..
الغريب أنه ممتع قليلاً..

- كنت أعمل في الإدارة المالية بالطبع.. (تضحك بشكلٍ لافت للنظر ومنفر)
تعلمين تلك الشركات مليئة بالمهندسين؛ لذا كان من الرائع أن أعمل بها
وأتعرف على كريم (تغمز بعينها بدلالٍ متكلف).. كريم زوجي انتظري إنه هنا
أيضًا سأعزفك عليه..

ممتاز.. ستعرفها عليه قائلةً بالتأكيد «منال، هذا زوجي المهندس كريم.. كريم،
تلك منال صديقتي من أيام ال...»، وتقول أين تعرفت عليها.. أمعقول ألا
تتذكر نهائيًا! إنها تتعامل معها وكأنهما كانتا صديقتين حميمتين.. هل تغيرت
ملامحها مثلًا؟ يجوز! حين تُنحّف المرأة حواجبها أو تختار لها رسمهً جديدةً
تمامًا تصبح شخصًا آخر.. أو حين ترتدي الحجاب.. أو تخلعه.. ولكن المشكلة
أنها تذكر وجهها كما هو.. أجنّت تمامًا مثلًا!

- هذا هو كريم الذي حدثتك عنه (تغمز لها بعينها مرة أخرى) كريم تلك منال
التي حدثتك عنها..

تَبًّا! ستسألها من أنتِ يا سخيقة وينتهي هذا الموقف الآن وفورًا..

انبعثت موسيقى بآلة الفلوت التي تعشقها منال.. جعلتها تفقد التركيز.. مرة
بحثت عن أي مقطع بتلك الآلة.. يكون غير مقطع زامفاير لبودابار.. أو
موسيقى أغنية عود لأحمد الحجار.. لم تجد.. والآن تسمعها في ذلك الحفل
الذي كان صاحبًا منذ دقائق.. تأخذ قلبها بعيدًا.. تبدو من الشرق الأقصى،

ولكن كيف ستعرف اسم المقطوعة لتعاود سماعها؟ أصبح هذا كل ما يهمها في تلك اللحظة وسيطر عليها بالكامل.. فجأة قالت:

- أنا آسفة.. من أنت؟ أقصد من أين تعرفيني؟.. (ضحكة مفتعلة تكاد تكون شريرة) تعرفين ألزهايمر..

بدا على الغريبة إحباط بسيط.. وكان كريم قد انسلّ ليتحدث مع آخرين.. أو أخريات.. انسلّ من يدي زوجته كالماء والصابون.. فقالت لها:

- أنا هاجر يا منال..

- آه (آه ممدودة) هاجر من؟ سامحيني الذاكرة لم تعد كالسابق؟

- هاجر.. كنت معك في الجامعة.. معقول! كنا في مجموعة واحدة!

- كان معي هاجر.. هاجر محمد.. هاجر إسماعيل.. هاجر بركات.. هاجر..

- أنا هاجر بركات! تذكرين كل تلك الأسماء ونسيت ملامحي!

- غريبة! أذكر اسمك.. وأذكر وجهك.. ولا أستطيع أن أضعهما معًا..

- (بدا عليها غضب خفيف أخفته ببراعة بلامح لا يظهر منها إلا مساحيق

التجميل) أنت الغريبة! قالوا عنك أنك قد أصبت بالجنون ولم أصدقهم!

أعتقدين أنك شهيرة فتتصنعين أنك لا تعرفيني!

- لا بالطبع لا! أنا لست شهيرة! هل أنا شهيرة؟

- (متظاهرة بالسماحة والحب والفرحة) وتتظاهرين بالتواضع الآن! (ثم ضحكة رقيقة جديدة من التي تلفت الأنظار).

التفتت ببصرها بجميع الاتجاهات لتبحث عن مصدر الموسيقى.. لا بد أن تعرف اسم المقطوعة قبل أن تنتهي ولا تجد وصفًا لها تسأل به عنها.. تركت هاجر بركات.. راحت تتجول مسرعة الخطى بين الناس.. الفلوت.. تحبه بشكل لا تدرك سببه.. والآن ينتهي وستفلت منها المقطوعة.. لتأتي مقطوعة أخرى صاحبة تكرهها.. تقول القاعدة أنه لا يتصادف أن تأتي مقطوعتان تحبهما متاليتين..

أدركت أنها تدور في دوائر.. حول الناس.. حول نفسها.. تبحث عن المسئول عن الموسيقى.. لا تجده.. اللحن يخرج من سماعات تبدو مثبتة بالعدم.. رأت العديد من الوجوه.. لم تعرف أيًا منها.. حتى هاجر اختفت.. إنه حفل.. ما الذي جاء بها إلى هذا الحفل! تكره الحفلات فلا بد أنه حدثٌ جلل الذي جعلها تأتي.. خافت.. أن تقابل أحدًا كانت تعرفه.. فتتذكر ملامحه.. وتنسى مرة أخرى من كان هو.. أجنّت كما تقول تلك الغريبة؟ هاجر بركات.. اسم سمعته.. من مئات الأسماء..

تقول إنهم يقولون.. من هم الذين يقولون؟ ألا يكفوا عن الكلام! بالتأكيد هؤلاء لديهم أسماء.. كتلك التي توجد في قائمة أصدقائها على فيسبوك.. أو أرقام هواتف مسجلة في هاتفها المحمول.. هاجر (جامعة).. أحمد (صحفي).. أ. علا (زميلة أُمي).. أم رحمة (زوجة الحارس).. لكل فرد تعريف.. لكي لا تنسى.. ورغم ذلك تنسى.. وعلى فيسبوك لا توجد تلك الخاصية.. تظهر لها منشورات ينشرها أشخاص ليراها غيرهم.. هاجر بركات تنشر صورة تتحدث

عن الخيانة.. من هي هاجر بركات؟ تدخل صفحتها فلا تجد أي صورة ولكن خانة الجامعة هي كليتها نفسها.. من الذي خانها؟ بالتأكيد ترسل هاجر ذلك المنشور إلى العشرات كي يراه شخص واحد.. فقط.. لتخبره بمشاعرها دون مواجهة.. أو كنوع من أنواع لفت النظر.. تمامًا كضحكتها.. في الماضي.. كانت المصريات غير الراقيات حين يتشاجرن مع أزواجهن يفتحن النافذة لكي يسمع الجيران.. والآن ينشرن المنشورات على الصفحات التي تتحرك باللمس..

قررت أن ترحل.. فقد انتهى اللحن ولم تجد من تسأله.. كان لحنًا شجيًّا دافئًا حنونًا.. لا يشبه الوجوه الغريبة في الحفل الغريب.. فلتبحث عنه في شبكة الإنترنت.. ماذا ستكتب؟ تيراتراتا فلوت! حسنا.. ستعود لتستمع إلى اللحنين القديمين حين تشتاق للفلوت.. لن تجد اللحن الجديد.. انتهى الأمر.. إلا مصادفة.. وقتها ستسرع في البحث عنه ولن تضيع وقتها مرة أخرى في محاولة تذكر الغرباء..

صور من هناك

تشبهني هي.. الملامح ذاتها تقريبًا، لكن الكل أجمع على كونها أكثر مرحًا.. وأسرع تأقلمًا مع الغرباء. لا أعلم من أين أتت بكل تلك البهجة معها منذ أنجبتها، غيرت حياة الكثيرين منذ يوم مولدها فقط.. حتى وهي نائمة.. تكفي نظرة إليها لتجعلني ابتسم بلا تحفظ، حين كنا بمصر في الثلاثة أعوام الأولى لها كانوا يتغزلون في جمال عينيها ذات الأهداب السوداء الكثيفة.. كان ذلك يسعدني، ولكنني كنت أطلب منهم أن يكفوا عن ترديد ذلك، أكره الفتاة المغرورة التي تعلم أنها جميلة، فتتعامل مع الناس على هذا الأساس وتطلب منهم أن يعاملونها بالمثل.. ولكن كنت أكون أكثر فرحًا حين يصفون روحها بالحلوة.. ضاحكة على الدوام مع الأعراب، تلعب مع أي شيء يتحرك.. ولو لم تجده لاخترعت القصص وتحدثت مع الجمادات صانعة حياة كاملة وهالة من الخيال والأساطير..

مؤخرًا أصبحت كثيرة الشرود، تجلس وحدها تحديق في العدم.. مر الآن خمسة أعوام لنا في هولندا.. أنا وهي فقط.. تجرأت وسألتها عن سبب ضياع نظرتها في اللا شيء.. تقول لا سبب.. لا أفكر في أي شيء.. ثم تسألني وعلى وجهها علامات التردد إن كان هناك حقًا فصلٌ مدرسيٌّ كاملٌ من الأطفال يشبهونها في مكان ما من هذا العالم، سألتها ما معنى يشبهونها؟ كنت قد أصررت على غرس فكرة في نفسها وهي أن الإنسان ليس غلافًا خارجيًا من الألوان وفرق الأحجام ورسم الملامح.. ولكنهم أثبتوا لها ولي أنني لست وحدي في هذا الكون من تبث في عقلها الحقائق والثوابت.. قالت

لي إنها رأّت صورة جماعية لأصدقاء ابنة خالتها، وكلهم بلا استثناء يحملون الملامح ذاتها.. ثم ابتسمت تلك الابتسامة الكبيرة الساخرة التي أصبحت تتميز بها وهي تضحك وتقول إن هذا بدا لها كجزء من الجنة..

لا تصرح أبدًا بما يجول في خاطرها، تشبهنى في هذا أيضًا، أسير معها على رصيف شارعنا الضيق المرصوف بالكامل بالحجارة، أمسك أنا هاتفى المحمول وأتابع آخر ما نشره معارفى، صورٌ من هناك.. من حيث أتيت ومن حيث أتت كل جذوري.. بينما تمسك هي بذراعى حقيبتها الوردية التي تضعها على ظهرها.. منشغلة بالنظر نحو الأرض.. للحظات تأملتها.. كنت منذ أيام مثلها أذهب للمدرسة، أيام! هي في الحقيقة أكثر من عشرين عامًا..

مدرستي التي كانت في إحدى شوارع حي المعادي في القاهرة، أيضًا كنت أذهب سيرًا على الأقدام.. على شاطئ نهر النيل حولي أشجار عملاقة تُظلل الطريق بأكمله، وتمنع عني خطر الشمس الصباحية في أيام الصيف.. وتجعلني في بدايات أيام الشتاء أنفثُ الهواءَ الباردَ ليصنع أبخرةً تسعدني وتضحكني، يمزح معي حارس عمارتنا وكأنه سيسابقني.. فأجري في الشارع بلا تفكير.. بلا خوف ولا تديبر.. أرى شجرة البرتقال أسفل بنايتنا تختلف عن باقي الأشجار فأشعر بالفخر.. فأبي يكره الأشجار غير المثمرة ولا يجد أي بد من زراعتها متعمدين.. وينتقد أن كل أهل القاهرة يصرون على زراعتها..

أقابل زميلاتي فأصنع لإحداهن حركة بفمي تعني لا أريد أن أكون صديقتك.. ولأخرى حركة أخرى تعني نحن صديقات.. وأتصنع أنني لا أرى تلك.. بينما أسعى لأن تتحدث معي هذه.. عالم من الطبقات بين البنات بين محبوبة وعادية ومن عامة شعب الفصل ومنبوذه.. بين جميلة ومتفوقة ومسكينة

وخجولة.. هذا المجتمع الصغير كان يشغل يومي بأكمله.. حين أقيّم من كنت أكتشف أنني كنت شهيرة ومحبوبة جدًا، وكنت أقرر من ستكون صديقتي ومن لا تستحق هذا الشرف.. كل ذلك رغم أنهم لم يعرفوا أبدًا من هو والدي وكان اسم شهرتي في المدرسة ثنائي فقط.. والآن أفكر فيها.. ترى أي وصف من الممكن أن يصفها به زملاء دراستها؟ وفي أي خانة يصنفونها؟

ورفعتُ عيني عن الأخبار بجهدٍ وأغلقت هاتفي بصعوبة ثم وضعته في حقيبتي.. وضعت يدي على كتفها الصغير.. سألتها هل تود أن نخرج بعد المدرسة لنتناول غداءنا بالخارج؟ ابتسمت بلا رد.. أكره صمتها رغم صمتي معظم أوقات اليوم.. وأحب أنها لا تتحدث معي أبدًا إلا بالعربية.. ليس كثير من العربيات اللواتي قابلتهن يتحدثن مع أبنائهن بالهولندية بكلٍ فخر.. هل تعتز بكابنها وجذورها مثلي؟ ربما كانت فقط مرآة لي.. متى تكونت شخصيتها الخاصة المتفردة؟ متى صارت هذا الكيان الغامض؟ سألتها هل يضايقك أحد في المدرسة.. قالت ساخرة إنه لا يقدر أحد أن يضايقها.. ضحكت.. غروري ذاته! ثم أعدت السؤال.. هل ضايقتك أحد وتمكنت من أن تتصرفي معه؟ قالت لي ألا أخاف.. كل شيء تحت السيطرة.. خفق قلبي.. كلمة أبيها.. كيف قالتها وهي لم تقابله منذ أن كانت في الثالثة!

مرة سألت نفسي.. كيف كرهت شهرة أبي يومًا ثم تزوجت من هو نسخة طبق الأصل منه! شخص هو مغناطيس للبشر حوله.. خطيب مفوه.. يبحث أين يقع الظلم لكي يلتصق بالمظلومين.. هكذا كنت أرى أبي.. فخورة به.. ولكن رغم ذلك طالما تمنيت حياة طبيعية في الظل.. ودومًا كنت أمازحه بأنني سأزوج موظف يعود للبيت في الثالثة عصرًا ونشاهد معًا مسرحيات

وأفلام ثم ننام في الثامنة.. كان يضحك ولم يغضبه ذلك أبدًا.. لأنني بعدها كنت أناقشه في آرائه السياسية بكل جرأة.. يشجعني.. ويحاول أن يقنعني.. وتنتهي حواراتنا ببعض نقاط التلاقي، والكثير من الاختلافات.. وبتناقل خبرات..

حين قابلت مراد قررت ألا أراه ثانية.. لا أحب الشخص الاستعراضي.. وكنت أخشى على نفسي منه.. لا أحب الأسر في نطاق رجل سيجعني أنتهي بأني لا أفكر إلا فيه.. مرة أخبرته ذلك فقال إنني أكثر استعراضية منه.. كنت أعلم ذلك فلم أغضب.. تلك المرحلة من محاولة الهروب والابتعاد عنه كانت الأكثر فشلًا في حياتي.. تفاصيل كثيرة أذكرها كلما نظرت في عيني ابنته.. هل ظلمتها بأني تزوجته واخترتة أبا لها؟ ملامحها هي ملامحي أنا.. فكيف أراها الآن تتحدث بلسانه؟! كل عيوبي فيها.. بينما ضحكته الساخرة الساحرة ترتسم على شفثتها يوميًا..

ومؤخرًا أصبحت كل الموجودات حولي تتآمر عليّ لتذكرني فقط به.. لتجعله صورة لا تفارق خيالي بعد أن ظننت أنني قد أنجح في جعلها فقط خلفية لعقلي.. أسمع اسمه في كلمات أجنبية بمعانٍ مختلفة.. وأرى أشياء كان يحبها.. وأخرى كان يسخر منها.. والآن تنضم ابنتي للمؤامرة وتنطق كلماته وكأنها تستدعي روحه من خلف الزنزانة التي تركته فيها مرغمًا لأربي تلك الطفلة بسلام..

أوصلتها للمدرسة التي تمتلئ بالشعور الشقراء.. اندست وسطهم كجواد عربي وسط مجموعة من الخيول الإنجليزية.. متمرد قوي وأصيل.. لكن غريب.. قررت أن أتحدث معها ونحن نتناول الغذاء.. سأسبل أغوار نفسها

وسأعلم بالضبط فيما تفكر.. أعرف أن كل شيء هنا مختلف عما ألفته أنا من مجتمع الأطفال.. القسوة أكثر؟ حقًا لا أدري ولكنهم يختلفون في التقييم.. عندنا من الممكن أن تصير الفتاة محبوبة؛ لأنها متفوقة في الدراسة.. هنا العكس.. شعرت أن كل معلوماتي سطحية.. من الإعلام، وأني أخلط مجتمع المدارس الأمريكية كما نراها في الأفلام بالمجتمع هنا، وهي لا تخبرني بالتفاصيل..

لماذا انطفأ في عينيها ذلك الوهج الذي كان ينيب أيامي.. هل تشعر بالغبرة وهي التي قد أتت لمستردام وهي في الثالثة؟ من المفترض أن تشعر أن تلك هي بلادها الوحيدة! كنت أظن ذلك! أيشعر الإنسان بالغبرة في هذا العمر! وتتسلل إلى نفسه مرارة الشعور بالاختلاف فقط لأن جذوره مختلفة حتى لو أتقن اللغة والعادات وأصبح مندمجًا؟ أيكون مهما طال عمره مندمجًا بجسده وتظل روحه بعيدة تحلق في مكان ما لا يدري عنه شيئًا؟

مرة قررت أن أجعلها تندمج مع أطفال عرب لعلها تصبح أكثر تلقائية.. كنت دومًا متخوفة من تلك اللحظة.. التي يعرف فيها أحد هنا من نكون.. أن تكوني زوجة لمعتقلٍ محكومٍ عليه بسنواتٍ عدة خلف الأسوار وابنة لمعتقلٍ توفي خلف الزنزانة ذاتها أمر مزعج لمعظم الناس.. ولا أحب إزعاج من حولي بتصوير أنه يسدي لي خدمة بأن يعرفني.. أفضل الموت وحيدة.. وقتها كدت أندم ولكن اختلف السبب.. لا أعلم هل زادها هذا غربة.. فقد أخبرها الأطفال عن رحلاتهم إلى مصر وسوريا والعراق.. والمغاربة تحدثوا معها بلغات لم تفهمها فزادت تقوقعًا.. لكنات أخرى مختلطة بالهولندية.. والمصريون بدوا لها أصغر منها عمرًا حتى من يكبرنها بأعوام.. كانوا من الطبقات التي لا تتحدث

إلا عن الحفلات والملابس الغالية.. وكانت مثلي.. لا تتحدث إلا عن آخر كتاب قرأته أو آخر فيلم وثائقي أبهرها..

لكن خطوة شراء كلب كانت موفقةً للغاية.. أحبته بشكل مفرط.. وكانت تتحدث معه وكأنه سيمثل معها في مسرحياتها الوهمية.. كان يضحكني حين يتجاوب معها ويهز ذيله جذلاً.. كنت أشعر أنها تشبهه.. أو كانت تشبهه في طفولتها الأولى.. المرح ذاته والبراءة المنقطعة النظير.. لم تنتظر أي سوء من أي أحد.. تصدق كل ما يقال لها على الدوام.. تفرح بأقل القليل.. وتعبّر عن فرحتها بكل الوسائل، لا تبخل بمشاعرها.. حين تحزن.. فقط تبكي.. لا تخفي ولا تخاف الشماتة أو أن تبدو عاجزة..

متى تحولت؟ وحين وصلت للثامنة أصبحت وكأنها قد نضجت وانتهى كل ما كانت قد ولدت به! حاولت أن أدرك متى ارتسمت على ملامحها الخبرة والمعرفة! قاسية هي ملامح عرك الحياة حين تكون على وجه الأطفال.. حين تتغير نظرتهم البلهاء إلى الأبد إلى نظرة علم بأقصى الأمور.. خاصة لو كان لا ينقصها أي شيء مادي.. معانيتها نفسية معقدة.. وأنا التي قرأت في كل المجالات أقف عاجزةً عن وضع يدي على الجرح لأضمده.. أو حتى أبدي التعاطف معه.. وقرأت هذا الوصف في رواية للكاتب المصري أحمد خالد توفيق ولكن كان يصف معاناة طفل بولندي تهدم بيته في الحرب العالمية الثانية، ولكن كان هذا أكثر تبريرًا بالمفهوم العقلاني..

مرة قالت لي إن الإنسان يولد وهو يرفض أن يكون مطيعًا.. فهتمت أنها تقصد أنه يولد بإرادة حرة.. وأضافت أن باقي من حوله يحولونه للطاعة.. فأدركت أنها تتحدث عن كون من حول الإنسان يتكاثفون ليقتلوا إرادته الحرة.. فقد

قالت بعد ذلك إن الدليل أنه يرفض أطعمة بعينها ولكن الآخرين يجبرونه عليها.. وعلى النوم في وقت محدد.. وبعد ذلك على عمل الفروض المدرسية.. ثم بعد ذلك لا يرفض ويتم ترويضه، رغم أنني قد سعدت بقدرتها الفائقة على التعبير إلا أنني قد خفت عليها..

يا ويلى منك حين تكبرين وتكبر معك جينات النضال الوراثة في عائلة أبوك وأمك.. سأرى أيامًا بلون شعرك الفاحم.. لم أحجمها أبدًا رغم رغبتى الشديدة في أن أصنع منها قطة وديعة تخاف من أي حركة غير متوقعة.. من خاف سلم.. إلا أنني بلا وعي كنت أصنع منها نسخة أخرى من كارهي الظلم.. ذلك الكره الذي يجعلهم فورًا الأكثر تعرضًا للظلم.. فهل أنا أصنعها فعلاً؟ أم أنها الآن تصنع نفسها بمعطيات جديدة تمامًا..

بعد انتهائي من عملي الروتيني الهادئ الذي لا يشبهني بالمرّة خرجت شاردةً وأنا أحكم غلق السترة المنتفخة على جسدي، الذي يرفض أن يحصل على تدفئة كافية وتبدو البرودة خارجة من أوصاله.. توجهت نحو مدرستها فوجدتها تقف هادئة كما تركتها بالضبط.. كنت أنا في مثل عمرها أعود من المدرسة مبعثرة الشعر بعد يوم من القفز في كل مكان.. بينما كانت هي تحتفظ بمظهرها بشكل يذهلني.. لا أعلم لماذا كان هذا يجعلني أعاملها وكأنها شخص ناضج ندي..

لم أكن أدلها كما كانت تفعل أُمي.. كانت تعد لنا كل شيء.. الطعام والملابس وتستذكر معنا دروسنا.. تنظف كل شيء يخلصنا وتمرضنا وتسمع قصصنا.. وطالما تساءلت ما الذي يجعل سيدة في مقتبل العمر تخدم فتاة تعدت العشرين؟.. أعود من الجامعة فأجد كل شيء معد لاستقبالي.. من أنا أصلًا

حتى أستحق تلك المكانة! وحتى بعد تخرجي من الجامعة تساءلت كيف لرجل تعدى الخمسين أن يوفر لامرأةٍ تخطت الخامسة والعشرين حياة مادية كاملة وكل ذلك لأنها ابنته! كنت أشعر ببعض الذنب.. ولم أجد مطلقًا إجابة على هذه الأسئلة سوى ألا أربي ابنتي أبدًا على أنني مسؤولة عنها.. هي مسؤولة عن نفسها..

ثم جاءت سفرتنا لهولندا لتجعل قراري هذا أسهل كثيرًا.. ولكنني لا أدري لماذا الآن أشعر بأنه قد باعد بيني وبينها، وجعل منها شخصًا مستقلًا بشكل أصبح يستفزني.. ولا أعرف لماذا أشعر أحيانًا بأنني فقط أتمنى لو كنت من طراز الأمهات المصريات النمطيات اللواتي يبكين لأن أبناءهن لا يشربون اللبن أو يهرولن خلفهم طوال اليوم بعصير البرتقال وملعقة العسل الأبيض اليومية..

بمجرد دخولنا مطعم الوجبات السريعة طلبت هي ما تريد وكانت سعيدة.. لا يوجد ما يسعدني بقدر ابتسامتها.. بدأت بأن قصصت عليها بعض القصص عن أبي وأمي.. وعن أبيها.. كنت أحرص ألا أقص عليها أبدًا أي ذكريات مؤلمة.. ربما كان هذا خطأً مني.. ولكنني كنت أرفض أن أنقل لها مشاعري السلبية في هذا العمر.. قصصت عليها حكايات من مدرستي وذهابي للنادي وبطولات السباحة على مستوى مصر التي كنت أحصل عليها.. كانت تسمع باهتمام وتتفاعل مع القصص بشكلٍ زائد..

حين جاء الطعام عادت للشroud.. لها نظرة تشبه نظرة مراد حين يكون في مأزق، تؤلمني تلك النظرة تمامًا كما كانت تؤلمني حين كنت أراها في عينيه.. يزعجني شعور أنه أمامي شخص يتألم ولا يستطيع أن يعبر عن ذلك، كما لا

أستطيع أنا أن أساعده بشيء.. خاصة لو كان هذا الشخص قريبًا مني.. قلت لها ماذا بك؟ فأجابت بأنها لم تعد ترغب في زيارة مصر كما كانت ترغب في السابق ولم تعد تنتظر هذا اليوم!

شعرت بوخزة في قلبي.. تحملت وصبرت لأعرف فيما تفكر بالضبط.. قالت لي إن السبب هو أن صورتها عن بلادها الأصلية تفوق الخيال.. وأنها قد سمعت وشاهدت وعرفت أن صورتها وهمية.. وضحكت وهي تقول لا جنة في الواقع.. لذا هي لا تريد أن تذهب إلى هناك وتصاب بصدمة..

رغم أن كلماتها كانت تعني أنني بالفعل قد أخطأت في حقها حين أخبرتها عن الجوانب الإيجابية فقط إلا أنها أدخلت بعض السرور إلى قلبي رغم كل شيء.. على الأقل هي تحب مصر.. عدت للقصاص.. سردت عليها بعض أحداث الجامعة.. الشباب والرغبة في التغيير.. كيف قابلت أباه وكيف كنا نختلف في الآراء السياسية، ولكن نتفق في حبّ العدل.. تطرقت إلى يوم مولدها.. أبي.. صمْتُ وأنا أتذكر خبر وفاته بعد يومين من اعتقاله..

تداعت الصور ورائحة المطار الخانقة وقفزت إلى ذهني صورتي وأنا أمسكها بيدي لتُسرع الخطى بطريقة سيرها الطفولية نحو الطائرة بعد أن عرفت أنني لست على قوائم الممنوعين من السفر.. حين علمت أنني سأتمكن من الهروب.. لولاها ما هربت.. لولاها ما تعبت.. ولولاها ما أحببت الحياة بعد وفاة أبي واعتقال مراد..

بلا وعي مني تسارعت كلماتي.. وأخفيت حقائق يُتعبني تذكرها.. لا أدري متى انسكبت دموعي.. لم أشعر بها حتى.. للحظة ضعف تمنيت فقط يد أبي

الحانية تخبرني أن كل شيء على ما يرام.. وبسمة من يعيش في غرفة
انفرادية تطمئنني وتبثني بعض الأمل.. كيف أشعر بأنني أنا الضعيفة التي
تحتاج إليه بينما هو يقضي عقوبة وحده في الظلام البارد! أكره أن أعترف
بأنني أحتاج إلى أحد.. لم أعترف حتى لنفسي إلا حين وجدتها قد قامت
وجلست بجواري تربت على كتفي وتقول لي بصوتٍ خافت: لا تخافي يا
أمي.. كل شيء تحت السيطرة.. أو سيكون لاحقًا كذلك..

إنهم قادمون

لا تدري إن كانت تلك المصادفة في صالحها أم لا.. هي بلا شك مصادفة هزلية.. ولكنها على الأقلٍ منحتها بعض الأمان اللحظي.. أن تفقد الطريق أثناء قيادتها سيارتها حتى تصل إلى حي شعبي فقيرٍ جداً مزدحمٍ وخانق.. البناءات متداخلة.. لا تذكر متى قررت أن تغامر وأن تحاول الوصول إلى بيتها عن طريق المرور بهذا المكان.. بالتأكيد ليس بنيةٍ مسبقة.. لقد ضاع منها الطريق..

أغلقت زجاج نوافذ سيارتها وفتحت تكييف السيارة محاولةً أن تنجو من شمسٍ ظهيرة مارس التي لم تعد مريحةً للعين.. وأخرجت نظارتها الشمسية.. مسحت رقبتها بمنديلٍ مبللٍ بعد أن التصق بها شعرها القصير.. يومٌ مزعجٌ والآن هي لا تعرف الطريق للعودة.. وتلك الأيام أصبح أن تفقد الطريق وأن تبحث عنه وحدها ترفاً لا يمكن تحمله..

فتحت النافذة حين مر بجوارها رجلٌ متوسط العمرٍ لتسأله من أين تخرج من هذا الجحيم.. الطقس الحار والرائحة.. محاولة أن تكون لبقة.. وقبل أن تفتح فمها سمعت الصرخات.. وطلقات النيران.. أغلقت النافذة مسرعةً ودقات قلبها تسابق يدها التي أمسكت بالمحمولٍ محاولةً أن تعرف عن طريق النظام تحديد الموقع الجغرافي أين هي لتعود فوراً.. لماذا لم تفكر منذ قليل في هذا الحل؟ لا تعرف! ولكن يبدو أن المشاجرة كانت كبيرة.. هل هي مظاهرة؟ من أين يخرج كل هؤلاء المسلحون.. وجوههم عنيفة.. ملامحهم قاسية.. صيحاتهم قتالية عالية ترج النفوس.. تهز الأبدان الضعيفة التي تتوارى خلف

شجاعة زائفة.. يأمرهم الجميع بالدخول إلى البيوت.. جاء أحدهم وكسر زجاج سيارتها الخلفي بعنفٍ مفاجئ.. وضع رأسه داخل السيارة وقال كلمات قليلة.. أخرجني من السيارة وإلا..

في أقل من دقيقة كانت تهرول في الأزقة محتضنة حقيبتها.. الأزقة خالية.. حتى الشمس توارت.. من بعيد تسمع أصوات القتال.. وبالنسبة لمن يعترض؟ لا تعلم ماذا يحدث له.. لحظات من ذاكرةٍ منسيةٍ تخبرها بأنها قد أتت إلى هذا الحي في الماضي لتقوم بتوزيع أغذية في الشتاء.. غذاء في رمضان.. لحم في عيد الأضحى.. ليست واثقة أنه الحي ذاته.. لكن يشبهه كثيرًا.. له الرائحة ذاتها واللون الرملي الذي يصبغ كل شيء حتى الوجوه.. بعد لحظات ستفكر.. الآن تجري ولا تحاول النظر للخلف.. حتى التقطت أذنيها صوتًا مألوفًا!

«أبلة نرمين.. أبلة نرمين» حاولت أن تتذكر آخر مرة ناداها أحدهم بهذا اللقب الذي يعني الأخت الكبرى بالتركية.. كان بعد أحد الثورات بشهور قليلة.. حين تطوعت لتكون معلمةً في فصولٍ محو الأمية.. كمحاولةٍ أخرى.. من تلك المحاولات.. للتغيير؟ التحسين؟ النهوض بالمجتمع؟ لا تدري.. فقد فشلت الحملة بعد ذلك لضعف الإمكانيات المادية رغم الإمكانيات البشرية الجبارة.. فشل كل هتاف نادوا به.. أصبح كالنكتة..

نظرت للأعلى من حيث يأتي الصوت.. فوجدت وجهًا مألوفًا.. إنها صفاء.. تلك الفتاة التي كانت ترغب حقًا في أن تتعلم.. تذكرها جيدًا؛ لأنها كانت مصابةً بنوعٍ من البلاهة.. كانت طيبة.. من هؤلاء الناس الذين لا يفهمون أي شيء في أي شيء.. يضحكون على أخطائهم الساذجة قبل أن يضحك

الآخرون.. لا تستطيع أن تتخذ قرارًا.. والآن ها هي تنادىها بصوت قوي واثق..

قبل أن تتذكر كل شيء عنها وجدتها تقف على البوابة الخشبية العتيقة لبيت متهالك من طابقين يتداخل بناؤه في البيوت الأخرى المجاورة.. تسحبها للداخل بعنفٍ وتقول:

- أبله نرمين، ادخلي بسرعة سيقتلونك..

- ولماذا يقتلونني.. أنا لم أفعل شيئًا!

- ولكنك منهم.. نعم أنت منهم.. آسفة أن أقول لك ذلك.. تعالي معي للداخل.. الآن أي أحد منكم يحتمي بأي أحد منا.. أهلي لن يرفضوا..

كانت تقولها بفخر.. ونرمين في حالة ذهول.. صفاء تتحدث عن أمر جديد وهي لا تدركه.. لو كان هذا مدًا ثوريًا جديدًا فهي مستعدة للمشاركة فيه وفورًا.. كما شاركت من قبل في كل شيء يدعو للتغيير.. لم تكن من النوع الجبان.. في الماضي.. ولكن هناك شيئًا جديدًا.. شيء يبدو أنه يدعو للقلق.. فتحت المحمول لم تجد أي شبكة.. مات.. لا إنترنت ولا مكالمات.. تكره لحظات انفصالها عن العالم الخارجي الذي أصبحت تدمن التواصل معه عبر الهاتف الذكي.. حدث ذلك من قبل.. في يومٍ ما قطعوا كل وسائل التواصل.. ويومها لم تخف؛ لأنه كان يعني شيئًا من النصر.. يعني أنهم مؤثرون إلى تلك الدرجة.. كانوا كثيرين.. لكنه الآن يعني العزلة..

دخلت مترددةً أن تسأل ماذا هناك.. أحياناً نرفض أن نطرح أسئلة؛ لأننا لا نرغب في أن نسمع إجابتها.. فنتركها معلقةً لأطول فترة ممكنة.. في البيت وجدت أم صفاء فقط.. تشبه صفاء ولكن أكبر بخمسةٍ وأربعين عامًا.. كيف تنجب امرأة لأول وآخر مرة في هذا السن؟ لم تفكر كثيرًا.. هذا أفضل لها.. في العادة تكون تلك الأسر بأعدادٍ كبيرة..

أدركت أنه قد ضاعت سيارتها للأبد.. ورغم ذلك هي ممتنة لكون حقيبتها لا تزال معها.. ولكن السيارة من الممكن أن يقوم من سرقها بعمل جريمة.. وهي مسجلةٌ باسمها.. مشكلةٌ جديدةٌ مع الشرطة.. قالت ذلك بخفوتٍ لصفاء التي ضحكت ضحكتها البلهاء المسكينة.. ثم قالت وكأنها تُطمئن نرمين ألا تخشى شيئاً.. لم يعد هناك شرطة.. لقد انتهى كل شيء.. وانتصرنا..

لجملة لم يعد هناك شرطة وقع غريب!

انتصرنا؟ هم؟ نحن؟ ماذا هناك! طلبت منها أن تشاهد التلفزيون.. فأخبرتها أن جميع أنواع التكنولوجيا قد انتهت بأوامرٍ مئة.. بدأ صبرها ينفذ.. من أنتم؟ نحن الشعب.. وأنتم العبيد.. قالتها صفاء بحياءٍ شديدٍ ولكن به بعض الفرحة.. بعدها بدأت أم صفاء في الحديث المطول.. بهدوءٍ تامٍّ وهي تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ من فرط الحماس.. من فرط سنواتٍ بلا لحظة فرح..

قالت إن الشعب قد قرر مصيره.. لا خوف.. لا تراجع.. تكاتف.. لا سلطة بعد اليوم.. لا أغنياء بعد تلك اللحظة.. الشعب خرج من جحوره.. ذهب لكل أحياء القلة من البشر الذين يتمتعون في هذا البلد.. احتلها.. انتهى الأمر.. وأسروا سُكانها.. لبيعوا كعبيد.. لتنقلب الآية.. ويسود العدل.. هذا هو الحل الوحيد..

كانت نرّمين قد كفت عن الاستماع حين وصلت لأذنيها كلمة «أغنياء»! هي لم تشعر يومًا بأنها من الأغنياء! ازدردت ريقها وقالت ذلك لصفاء وأمها.. ضحتكا بنفس صافية سعيدة لا يشوبها شائبة.. بينما هي تحترق.. قالا لها ما نوعية الطعام الذي يدخل جوفك؟ أهو يشبه طعامنا؟ تركيبين سيارة ملكك؟ وعادوا للضحك.. فتحوا حقيبتها وضحكوا حين شاهدوا العطرَ ونظارة الشمس والهاتف الحديث.. بينما هي لا تقدر على التقاط أنفاسها.. لا تعلم هل تبكي أم تنتظر خبرًا مختلفًا قد يقلب الموازين.. لأول مرة تدرك كيف ينظر إليها من يعتبرون أنفسهم مختلفين.. مدلة.. إذن حقيرة.. جميلة منمقة.. إذن تستحق الموت.. نظيفة؟ يا لجرأتها.. متعلمة؟ هذا كثيرٌ لقد طفح الكيل.. التعليم يعني الوقاحة.. المعرفة تعني التكبر.. تعني الطبقية..

في المساء عادت بعض وسائل الاتصال.. سقطت مدينتها كبغداد في يد المغول.. المغول لا يشبهون العرب.. يسهل التفريق بينهم في الملامح.. ولكن كيف تُجزم صفاء وأمها أنها تختلف عنهم! قالت لها صفاء باسمه حين حاولت استعارة ملابس تشبه ملابس الشعب لعلها تتخفى، أنها مهما ارتدت من ملابس رثة سيعرفون.. بشرتها.. أظافرها.. ملمس يدها.. والأدهى هو لغتها.. لغتي؟ نحن نتحدث اللغة نفسها! ابتسمت ولم ترد.. وكأنها تحاور بلهائًا تعيش في الوهم..

حاولت أن تخرج من الذاتية.. وأن تعرف حقيقة الوضع.. علمت أنه قد أصبح لكلّ منطقةٍ صغيرةٍ كبيرٌ يحكمها بالسلاح.. مع بعض التنسيق مع كبار المناطق الأخرى.. بلا كبير فوقهم جميعهم.. فقد اتفقوا ألا يُقلّدوا أحدًا أمورهم.. ولا تواصل مع أي دولة أجنبية.. عصابات مسلحة قدمت من العشوائيات.. تدربت

في الحوارى.. من يعترض يُقتل في ساعتها.. فلا وقت لمفاوضاتٍ وكلامٍ
مُزينٍ مُزخرفٍ بمصلحاتٍ بلا معنى اعتاد عليه الأثرياء.. فلسفة الأمور.. لا
أمور ولا فلسفة ولا علم ولا إعلام.. أمامك سلاح.. إن تطعه تعش.. إن تنمرد..
فلتذهب فورًا بلا ضجيج..

عادت لتفكر في حياتها.. مرت أيامٌ وهي لا تزال في بيتٍ صفاء.. عرفت أن
الشعب لم يصل إلى الأثرياء الحقيقيين.. هؤلاء الذين يعيشون في قصورٍ
منفصلةٍ عن مدينتها.. يطلبون طعامًا من مطاعمٍ باريسيةٍ ويصل إليهم
بالطائرة خلال ساعات قليلة.. لا يتعلمون في بلادها.. يأكلون من مزارعٍ
خاصةٍ غير مسرطنة.. ويشربون مياه مستوردة.. هؤلاء نجوا.. لم يتحولوا
لعبيد.. سافروا.. انتظرت أن يحررهم أي أحد ممن كانت تثق بهم على الساحة
الثورية.. علمت أنهم قد تحولوا أيضًا.. منهم من سافر.. ومنهم من قد تم
ختمه.. عرضه.. ثم بيعه..

بيئت، لحظات.. تمنى أن تهرب للحظات.. وأوقاتٌ أخرى تاه منها الزمن..
تقضي يومها في غرفةٍ صفاء.. علمت أنهم سيذهبون لأخذ نصيبهم من غنيمةٍ
الحي الأقرب لهم الذي تم احتلاله.. كانوا يحلمون ببيتٍ جديدٍ؛ لأن هذا آيل
للسقوط.. ليسوا الأفقر لذا سيتأخر دورهم.. بيتهم من الداخل به لوحات..
تحمل أحجارًا زرقاء عملاقة لتمنع الحسد.. كانوا يشعرون أنهم يملكون ما
يمكن حَسدهم عليه.. فهناك من ينام في مجاري الصرف الصحي.. وآخرون
ينامون تحت الكباري العملاقة القاسية.. يشعرون أنهم ليسوا الأكثر بؤسًا..
كما كانت تشعر نرمين أنها مطلقًا لم تكن من طبقة الأغنياء! يقولون كل ذلك

وهم يختلسون النظر إليها.. مذنبه هي.. ولكنها طيبة.. هكذا تقول أعينهم..
مسكينة هي.. ولكن تستحق..

ثم فترة من الكآبة لا بأس بها.. لقد حاربت في الماضي بقدر الإمكان من أجل
العدالة الاجتماعية.. ساعدت بكل ما تملك من طاقة.. آمنت بالعدل وبالحرية..
لكن ما يحدث ليس هو المسار الصحيح.. ستنتهي أموالهم وغنائمهم التي
سلبوها من العبيد.. سيقتلون بعضهم من أجلها.. وتأثيرها لحظات عجيبة من
الشماتة.. في كل من تشاجروا بعدد الموجات الثورية.. كلهم من طبقة العبيد
الآن.. ضحكات ساخرة هستيرية.. يعقبها صمٌّ قاتلٌ وتوجس.. فالآن هي
حبيسة بيت أناس لا تعرفهم.. لمتى؟

هل ستأتي اللحظة التي تخرج فيها من البيت فتتحول؟ علمت أن كثيرات
من صديقاتها يعشن في بيوت من كانوا يومًا سائقين.. كخدم.. أو كحراس
عمارات.. وأخريات تم تسليمهم.. سمعت أن زميلهم كريم قد مات.. قديمًا كان
يُحزنها أن تسمع عن وفاة شاب كان يتمتع بصحة وافرة.. وابتسامه واسعة..
ولكن مؤخرًا أصبحت تشعر بأنها على وشك البكاء فقط حين ترى وجه شاب
من بلادها.. كل مواطنيها هم أبناء موت.. ولد ليموت شابًا ويبكي عنفوانه
الناس الذين سيبيكهم آخرون قريبًا.. كانت أصبحت كلما ترى ابتسامة شخص
سعيد تشعر بالشفقة عليه.. لماذا تسعد وموتك قريب؟ هذا بلد لن نصل فيه
إلى شيخوخة.. سنموت شابًا تلو الآخر..

كريم مات؟ هنيئًا له إذن.. عرف نهايته ومصيره.. لم تكن تتمنى الموت.. ولكن
لم تعد تشعر أنه أمرٌ جليلٌ يستحق كل هذا الرثاء.. هي حالات كلنا سنمر بها..
يكفينا درامية.. كله يُنسى..

مر شهرٌ كاملٌ وهي تعيش في بيتٍ صفاء.. حاولت أن تعود لمحاولاتٍ تعليمها
الهجاء.. لعلها تشعر بفائدةٍ للوجود.. ففشلت.. لا فائدة.. عادت للتقويع في
غرفتها وقد أصابها نوعٌ جديدٌ من المشاعر.. انتظار اللحظة الحاسمة..
تسمعهم من خلفِ الجدرانِ يهمسون أن حاكمَ كل منطقة قد أعلن أن من
يُسلم أحدًا من العبيدِ فله مكافأة سخية.. تسمعهم يستنكرون هذه الفعلة
الشنعاء.. بقوةٍ في البداية.. ثم ببعض التراخي.. لا تعلم إن كانت قد أصيبت
بالبارانويا.. وأصبحت تشك في مقبضِ البابِ حين ينفتح.. وفي الأغصية التي
تدفن قلقها وتوجسها تحتها ليلاً..

كانت تعلم أن كل هذا سينتهي.. لكن لا موعد.. كل المشاكل ستزول.. لكن لا
خطة.. ستزدهر بلادها وتصبح مرةً أخرى من أفضلِ دول العالم.. المشكلة
فقط أنه لا يوجد توقيتٌ محددٌ.. وعمرنا نحن محدّدٌ بعددِ سنواتٍ لا يمكن أن
نعيش أكثر منها.. في عمرِ الزمنِ خمسمائة عام هي لا شيء.. ولكن أن تولد
أنت في منتصف عصر الاضمحلال فيكون هذا بالنسبة لك هو كل شيء..

وماذا لو سلموها.. هل يستحق الأمر كل هذا الخوف! ربما لو واجهته لضاع
الخوف منها.. القلق والانتظار هو أسوأ ميراث للخوف.. فعلاج الهلع هو
مواجهته ولا شيء إلا ذلك..

لماذا يُكرر الناس فعل ما ضايقهم بالضبط يومًا ما؟.. لماذا حين يرفضون خُلُقًا
معينًا.. يكون علاجه عندهم أن يحذوا حذوه بحذافيره؟ يكره أحدهم
الكذب.. فيكذب.. يحرقه الظلم.. فما أن يُمسك مقاليد الأمور حتى يعيث في
الأرض ظلمًا وفسادًا!

ماذا لو خرجت.. ربما قابلت أخيرًا أناسًا يشبهونها.. كانت قد أصبحت تكره لحظات جُبنها التي زادت.. فلم تكن أبدًا كذلك من قبل.. لم تكن تخشى الموت حين كانت تتخيل أنه سيؤدي إلى تحرر بلادها.. ولكنها الآن تشعر أنها ستموت بلا طائل.. ورغم كل ذلك تتنصت عليهم من خلف الأبواب.. ثم تتوارى ملتصقة بالحائط.. وهي تدرك أنهم لا محالة، لن يتركوها طويلاً.. هذا أقوى منهم.. تسمعهم قادمين.. فتقول إنها النهاية.. أو البداية.. لا تعلم.. خائفة.. مستسلمة.. تنتظر.

وعي

فقدت التركيز، ولم تعد قادرة على تمييز سبب ألم عضلات ذراعها؛ أهو ثقل تلك المشتريات أم أنها لم تعد تقدر على حمل أي شيء؟ أي شيء فيه ضغط على إرادتها حتى لو كان رمزياً..

سارت وسطهم، تجمعات من البشر لكلِّ غرض، تشابهوا.. يدفعون أموالاً مقابل الحصول على أشياء، هنا كل شيء غالي الثمن، ملابس بعلاماتٍ تجارية فاخرة، أحذية، عطور، ومجوهرات. بين المحلات متاجر لبيع المأكولات، أيضاً مرتفعة الأسعار.

نظرت في الوجوه، حقاً تشبههم.. آثار استيائها ذلك، كانت منذ لحظات قد شاهدت صورة تشبهها، هناك.. في مكان آخر من الأرض، فتاة في مثل عمرها تمسك بملابسها وتكاد أن تمزقها وهي تصرخ.. أمامها جثث.. فهمت من الصورة أنهم أبناؤها، كان هناك مقطع فيديو أيضاً، لم تضغط لتشاهده، اكتفت بالصورة، كانت تشبهها بشكلٍ غريب.

لا تعلم هل لو كانوا مختلفين الملامح؛ أكانوا سيتركون في روحها هذا الجرح العميق؟

تشعر أن من حولها هم المختلفون، تراهم يأكلون.. يضحكون.. وتحمل في داخلها شعوراً بالذنب وكأنها مسئولة عما يحدث هناك فتتجمع العبرات في عينيها، تمسك رداءً أحمر يبدو ماجئاً.. وقفت في طابور غرفة القياس،

سمعت من حولها يتحدثون، اثنتين تتحدثان الفرنسية.. حتى لا يفهم من حولهما.. وأخريات يتحدثن بالإنجليزية.. بلا سبب أصلاً.. ازدادت العبرات وهي تؤكد لنفسها أنها لا تريد أن تشبه هؤلاء..

في غرفة القياس بدا الثوب الأحمر فاتئاً.. غريباً عليها، يجعلها واحدةً أخرى..

دفعت ثمنه وخرجت تبكي، ثمنه يكفي ليسد جوع أسرة في يومٍ صعب، حسبت ماذا يمكن أن يشتروا به، شكل الابتسامة التي من الممكن أن ترتسم على وجه طفلة لو اشترت لها بثمنه ثوباً جديداً..

دخلت متجرًا آخر، سيكون رائعًا لو جربت أحمر شفاه باللون ذاته، اقتربت بائعة متمرسه في جعل الزبونة تدفع كل ما لديها، وتسلت موسيقى يابانية خافتة..

تلفتت حولها حتى أصبحت تدور في المكان.. الناس يعيشون وكأن العالم خُلق من أجل لحظات متعتهم الصغيرة التي تصبح بغيضة حين تشاهد صور الظلم في مكان قريب بعيد.. الناس لا يهتمون ولا يدركون وليس لديهم أي رغبة سوى في إشباع رغبات غبية للحياة اليومية، نزهاة زائفة وطعام ملون، حلبيّ مقرفة وغرور بلا شيء يدعو إليه..

فجأة اختل توازنها فسقطت أرضًا، شعرت أنها ترغب فقط في أن تلمس برأسها الأرض..

تجمع بعض الناس مسرعين، حاولوا إفاقتها بوضع أحد العطور الفاخرة على أنفها؛ لكنه لم يُجد نفعًا.. كانت تسمعهم، لم تكن فاقدةً للوعي! أرادت أن

تخبرهم بذلك ولكنها لم تستطع.. مر الوقت بطيئاً وجموع الناس تتزايد حولها.. أرادت أن تخبرهم أنها بخير، اذهبوا إلى هناك! كفوا عن حياة العبث وكأنكم تعيشون وحدكم غافلين! بغفلتكم، أنتم مذنبون وكأنكم القتلة..

جاء رجل أمن يسأل عن التجمهر، هذا ما يهمه دوماً وأبداً.. رد الناس هناك فتاة فاقدة للوعي.. لو كانت تستطيع أن تتحدث لقات لهم إنكم أنتم المنعدمي الوعي..

سويغات قصار

أمسكث القلم لأكتب به خاطرة شعرية جاءني وحي كلماتها وأنا أطبخ منذ قليل.. كنت أعلم أن من يقاربني في العمر لم يعودوا يكتبون بالأقلام وأن شاشات الأجهزة اللوحية أو لوحة المفاتيح قد احتلت عالم الكتابة الحبرية وأزاحته على الرف في السنوات القليلة الماضية.. لكني كنت لا أزال أحب الأقلام والورق..

حين وصلت للورقة تبخرت الكلمات من ذاكرتي فحزنت.. حاولت لعدة دقائق أن أتذكر حتى الموضوع لكن فشلت.. نظرت على يدي فوجدتها قد بدأت تتشقق كما يحدث كل شتاء؛ فتوجست خيفة من كون مرطب اليد الخاص بي قد انتهى وأن تنكسر أظافري.. لكن وجدت به كمية مناسبة فوضعتها على يدي البضة التي طالما اهتممت بها..

قررت فجأة أن أرتدي ثيابي وأن أنزل للشارع لأطوف مهرولة حول الحديقة الخضراء كنوع من الرياضة التي أواظب عليها لأحافظ على قوامي الرشيق.. نزلت بالفعل وأسرتني الشمس وضجيج المارة والسيارات.. لا أعلم لماذا شعرت وكأنني لم أترك المنزل منذ شهور.. لكن كنت سعيدة على كل حال.. وقفت لبرهة أتأمل الوجوه المسرعة.. مراهقون يخرجون من المدرسة معفرة ثيابهم ولكن يبدو وكأنهم غير مهتمين بذلك الأمر مطلقاً.. حسدتهم على كون كل همومهم الآن أن يبدون أقوياء ظرفاء أمام أقرانهم..

ثم نظرت للناحية الأخرى فوجدت بائع الخضر الذي يجلبها يوميًا في الصباح ليضعها على عربة خشبية أمام الحديقة.. كان يغني بأسماء ما يبيع من خضر وفواكه.. لو يكن صوته جميلًا بشكل خاص ولكن كان شجيًا، وأجمل ما فيه هو استمتاعه به..

سرت قليلًا حول الحديقة التي كانت رائحة السماد الصناعي بها جميلة.. تشبه رائحة البطيخ.. غريب أن يكون السماد الصناعي أذكى رائحة من السماد الطبيعي.. رغم كونه أقل فائدة للمزروعات.. بعد نصف ساعة قررت أن أعود لأكمل الطهي حتى يجده الأولاد معدًا كالمعتاد حين يعودون من المدارس..

بمجرد رجوعي للمنزل وجدت ابني وابنتي يقفون وهم في غاية القلق.. أُنبني ابني كثيرًا على الخروج وحدي دون أن أخبر أحدًا.. وكانت ابنتي تبكي فرحًا لأنني تمكنت من العودة.. وكان حارس البناية يشكر ربه أنه رغم مرور ساعات عدتُ سليمة معافاة..

أسندوني حتى جلست شاردة الذهن قليلًا.. ثم نظرت إلى يدي فوجدتها تمتلئ بتجاعيد الزمن.. وبقع بنية كنت أراها على يد جدتي.. وكانت ركبتني تئن ألمًا.. قلت لهم إنها لم تكن سوى نصف ساعة! لم يصدقني أحد.. أمرتهم أن يعودوا لبيوتهم وأزواجهم وأبنائهم ولكن رفضوا ليكرروا الحوار الذي يعرفون أنني أكرهه بأنه لا بد أن أعيش مع أحدهم.. كل ذلك من أجل نصف ساعة اختلستها من عمر الزمان...

رحلة مفاجئة

مرة أخرى تقابلنا.. ولكن لم أكن قد خططت لذلك اللقاء.. استيقظت في الصباح وقررت فجأة أن آخذ السيارة دون أن أخبر أحدًا وأن أذهب فقط للجلوس أمام المدرسة.. وحين وصلت درت حولها قليلاً ثم ترجلت أتأمل المبنى الشاهق العتيق؛ ففوجئت بهم يضحكون ويتبادلون السخريرات والنكات.. تمامًا كالماضي!

كانت نسمات الصباح الباردة تكاد تصيب وجهي بالتجمد.. فرحت ابتسم ابتسامات مصطنعة لأحرك عضلات فكي.. ونظرت في الساعة فإذا بها السابعة والنصف.. وقت طالما كرهت أن أستيقظ فيه.. ولا أحبه أبدًا إلا في حالتين.. أن أكون قد وصلت إليه مستيقظة من الأمس.. أو أن يكون يوم رحلة مدرسية.

في يوم الرحلة تكون الحقيبة مُعدة منذ ساعات الليل الأولى.. والملابس جاهزة بكل تفاصيلها.. الإكسسوار وحُلِّي الشعر.. حتى أنني كنت أستيقظ قبل الموعد الذي ستأتي أمي لتوقظني فيه.. كنت أظل في الفراش أتقلب.. تتسلل إلى أنفي رائحة الطعام الذي تعده أمي لي لآخذه معي لكي أتناوله على مدار اليوم.. كانت تعد لي شاورما.. كل مرة شاورما.. سنوات طوال لم آخذ معي في الرحلات سواها.. ولم أكن أملُّ منها مطلقًا.. كانت شطائر أصدقائي تتنوع بين الكفتة وشرائح الدجاج واللحوم الباردة.. كانت شطائرهم تتشابه.. ولا يأتي بالشاورما غيري، وكنا نتبادل كل شيء وأي شيء ونجرب كل شيء.

رأيتهم جميعًا يقفون على باب المدرسة الحديدي الأخضر.. اقتربت منهم فرحبوا بي ترحيبًا عاديًا، وكأننا كنا هنا بالأمس معًا.. حتى أنا لم ألحظ أي فرق في ملامحهم.. الضحكات نفسها.. وتلك مازالت تغار من هذه.. وسارة كما هي متأنقة بحواجب تم تنحيفها بعناية فائقة رغم كونها بعد مراهقة صغيرة.. عبير بملابس رياضية ونظارة شمس مضحكة وطفيفة.. نهى تتلفت حولها حتى لا يراها والدها؛ فقد كانت تقف معنا وهو قد أمرها أن تنتظر البدء في الانطلاق للرحلة في الحافلة لا في الطريق.. أمر سخيّف جدًّا أن يكون والدك مُعلم في المدرسة ذاتها التي تقضي فيها حياتك الأولى.. منار تسخر من الجميع والجميع يسخر منها بلا تحفظ.. هديل الملوّلة تبتسم بتحفظ على الدعابات المكررة وأنا أعلم أنها لم تكن تأتي للرحلات إلا تحت إلحاح مني رغم كرهها لتفاهات مجموعة البنات الصغيرات اللواتي لا يتحدثن إلا عن موضحة السترة الجينز إن كانت قد انتهت أم لا.. وعن ذلك الفتى إن كان معنى حديثه أنه عاشق ولهان أم لا.

وقفت بينهم حائرة.. لم أعد عدتي للرحلة المفاجأة تلك! ولو استيقظ أهلي ولم يجدوني ولم يجدوا السيارة التي في الحقيقة ليست ملكي لن يكون يومًا سارًّا.. فقد كانت خطتي تعتمد على العودة خلال ساعة والنوم في براءة بعدها.. ولكن رؤيتي للجميع هنا أربكتني.. رحلة أتمناها لا أنكر.. ولكن كيف سأذهب حتى دون حقيبة شطائر الشاورما!

فكرت قليلًا.. الطعام مقدور عليه، أنا كبيرة الآن وأستطيع أن أكل أي شيء.. لست ممنوعة من تناول الطعام من المطاعم المشبوهة التي تبيع الأكلات

الشعبية التي كانت في طفولتي حتمًا ستودي بحياتي كما كانت تقول لي
أمي.. والجميع يتعامل معي على أنني قد أتيت مثلهم لأذهب للرحلة..

سحبثُ عبير من ذراعها وأبعدتها عن مجموعة الضاحكات اللواتي لا يسمعن
إلا الصياح وعاتبتهن على عدم إخباري بأمر الرحلة.. قالت لي بدهشة غامرة
إنني قد تحدثت معها أمس مؤكدة حضوري.. ثم نادى الجميع فأكدوا الأمر..

فهمت سارة أنني أتملص من الذهاب.. كعادتي في التملص من النزعات التي
لم تكن على ذوقي، أو حين أصاب بحب العزلة فأضع العراقيل.. غضب
الجميع مني.. ضحكت بشدة.. حقًا أنا غير مستعدة للرحلة التي ستذهبن إليها
يا مجموعة المراهقات السعيدات! نعم أتمنى أن أذهب معكن حقيقةً.. لكنني
صدقًا قد اختلفت..

لم يسمعني كما توقعت.. فطلبت منهن أن نلتقط صورة جماعية قبل بدء
الرحلة.. كانت صورة رائعة.. وجدت وجهي فيها يتأرجح بين الصبا والشباب
ولا يبدو عليه عمر، تسلت بعدها لسيارتي وتركت كل شيء خلفي.. فتحت
نوافذ السيارة كلها لأزداد تجمدًا.. ضحكت بصوت عالٍ غير مصدقة أنهن
مازالن هناك.. وأنني رغم ذلك أتركهن لأعود طواعيةً لما صرت عليه..

دفاتر

عرفت أنها لم تكن تحب هذا العمل كثيرًا؛ ولكنني عرفت لاحقًا، فيما بعد. ولكن كانت تفرح بانتهائه بسعادة طفل انتهى من الاختبارات الشفهية في المرحلة الابتدائية، أشارت إليّ في ذلك العام آن آتي وأتصفح معها مجلة بوردة الألمانية للتطريز.. وكان بجوارها قاموس ألماني عربي صغير كان لأبي أيام الثانوية العامة في الستينيات، قالت لي بسعادة عرفت فيما بعد أنها مصطنعة:

- «هيا اختاري».

وفورًا وضعت وجهي كله في الصفحات وجل اهتمامي لأختار السترة الصوف التي سوف تظل ترافقني حتى نهاية الشتاء القادم، أشرت نحو سترة بيضاء اللون تزينها صورة فتاة شقراء، قالت لي أمي إنه لن يكون جميلًا وسيتسخ سريعًا.. اقتنعت فورًا.. أخبرتها أنني اخترت البنفسجي الذي ترتديه الفتاة الأقرب للبدانة ذات الوجنة الحمراء، قالت لي أمي إنها تختلف عني في الجسم وسيكون عليّ مختلفًا ولن يعجبني، بدأ صبري في النفاذ حتى وقعت عيني على السماوي اللون ذي رسمة الفيل.. قلت بفرح:

- «هذا هو».

نظرت أمي له ولي. لم تتحدث كثيرًا.. وحين قالت «لا» بدأت في البكاء فورًا وفي تلك اللحظة دخل أبي وقال:

- «ولماذا تخيرينها إن كنتِ لن تغزلي لها ما سيعجبها في النهاية؟»

شعرت أن في ذلك نوعًا ممتازًا من الضغط فزدت من جرعة البكاء.. ردت أمي بهدوء حين أتذكره أشعر بأنه كان منكسرًا:

- «أريد أن يكون لها إرادة وأن تعلم أنه رغم رغباتها الحرة فلن تكون دومًا مجابة».

قال لي أبي حائياً:

- «انذهبي الآن للنوم وغداً نتحدث في هذا الأمر».

في طريقي لغرفتي كنت أفكر في مذهري بضيفرتين طويلتين في شتاء أرتمي فيه سترة بصورة فيل..

كان كل شيء قليلاً وبالأدوار.. الطعام والملابس والنزهات، لم يخبرونا بأي شيء حول لماذا علينا دومًا انتظار دورنا والرضا به ولم نكن نشترك معهما مطلقًا في عملية التوزيع..

سألني زميلتي مي مرة:

- «هل أنت غنية أم فقيرة؟»

كانت تقف بجوارها هديل ومعها ورقة وقلم، تكتب الإجابات.. بدا السؤال أصعب من أسئلة اللغة الإنجليزية التي كنت أتعثر فيها كتعثر رضيع يصعد الدرج.. تلعثمت كعادتي في تلك الأيام، كنت أحاول أن أرد بإجابة تشعرهم

بأنني متميزة دون اللجوء للكذب.. كنت قد تشربت بشعور أن الكذب هو أمر
داعر! قلت:

- «نحن متوسطون».

قالت مي بلهجة آمرة:

- «لا يوجد شيء اسمه متوسطون، أنتم أغنياء أو فقراء، حدي».

ازدادت حيرتي فهربت بسؤال:

- «ما معنى الاثنين؟»

قالت وكأنها كانت تنتظر السؤال:

- «الأغنياء يأكلون لحمًا كل يوم».

وأضافت هديل بحماس:

- «ويشترون ملابس أكثر من مرة طوال العام».

قلت بتوجس:

- «كم مرة مثلًا؟»

محتفظةً بحماسها استطردت:

- «خمس مرات مثلًا».

تسارعت دقات قلبي.. ظننت أنها صدمة لأنني لأول مرة أعرف أننا فقراء! نحن لا نشتري الملابس نهائيًا.. وأمي تغزل لكل فرد فينا مرتين سنويًا.. بدت على وجهي علامات البله فجأة.. وتركنتي الفتاتان المرموقتان في مجتمع بنات المدرسة متأففتين من فرط الملل.. ففرحت بالنجاة من الاعتراف الخطير.

عدت للبيت في همي، استقبلتني أُمِّي بتوبيخ شديد، وذلك لأنني كنت من فرط الهم قد نسيت خلع حذائي قبل الدخول إلى المنزل ولوثت السجاد.. بدت غاضبةً جدًّا فهرولت نحو غرفتي خائفة من أن تضربني.. هرولت محدثةً المزيد من الفوضى فهرولت خلفي وهي تمسك بالسلاح.. حذائها المنزلي هبط على كتفي محدثًا دويًّا أيقظ أختي التي كانت تصل إلى البيت قبل وصولي بساعة.. بكيت حتى جاء موعد الغذاء بوصول أبي وأخي الأكبر، نسيت كل شيء عن مي وهديل وأنا أتناول المسقعة باللحم المفروم، نسيت أن ألاحظ أن ذلك يوم مهم؛ لأن اللحم المفروم لا يأتي إلا مرة أسبوعيًّا، أما الدجاج واللحم المحمر فهو مرة كل ثلاث أسابيع بالتناوب.

بعد الغذاء افترشنا الأرض لنحل الفروض المنزلية ورغم انشغالي لاحظت أن أبي قد نظر لأُمِّي نظرة ذات معنى فيها تساؤل، قالت له:

- «ليس الآن.. بل غدًا.. اليوم هي معاقبة».

بدا أبي كالطفل الحزين.. فهمت أن الحوار يدور حولي.. لم أفهم ما هو الذي تأجل لأنني معاقبة، كل ما دار في مخيلتي هو السعادة؛ لأن أبي لم يقرر أن يعاقبني بظهر كفه على رأسي لأنني أغضبت أُمِّي في غيابه.

في الصباح استيقظت على وجهيهما فقمتم مفزوعة، في العادة لاستيقظ
تناديني أمي من بعيد عدة مرات ويكون أبي في الشرفة يقرأ الجريدة
ويشرب الشاي، ظننت أنني سأعاقب على شيء ما نسيت كنهه.. ولكنني
فوجئت بهما يمسان بقطعة قماش هي جاكيت سماوي اللون يناسبني تمامًا
يزينه رسم مشغول باليد لفيل يضحك لي.

كانت في معظم الأوقات تكرر الحكايات.. مع ذكر تفاصيل جديدة أو نسيان
تفاصيل أخرى، كنت أستمع لها كل مرة دون أن أذكر نهائيًا أنني قد سمعت
القصة من قبل.. بل ومرارًا وتكرارًا.. وذلك لأنني كنت قد رأيتها تقص على
أخي موقفًا ما قال لها إنه سمعه من قبل، فرأيت على وجهها نظرة إحباط
قررت بعدها ألا أتسبب فيها مطلقًا.. لذا كانت تعتبرني صديقتها الوحيدة.

سألته مرة:

- «ماما لماذا ليس لك صديقات من الجامعة أو المدرسة أو جاراتك حين
كنتي في بيت جدي؟»

بدأت في تذكرهن.. كنت أعرفهن كلهن فقط من الحكايات.. ولكن لم أر أيًا
منهن مطلقًا.. كان ذلك يشعرني بالأسى.. سأنسى نوران وهند بمجرد أن أترك
المدرسة! هذا ما تصورته وقتها، تقول أمي:

- «الزواج يشغل الفتاة حتى عن أهلها.. لا وقت للصديقات، ولكنها كانت أحلى
أيام.»

في الأعياد تهااتفهم ويصبح صوت ضحكتها مختلفًا عن صوتها بقية العام، فيه مرح من النادر جدًا أن نراها فيه، رغم أنها تضحك على الدوام ولكن ضحكات هادئة، لم أكن أشعر بالغيرة بل كنت أتمنى أن تزورنا هؤلاء الزميلات لعلهن يجعلنها تضحك بتلك الصورة المبهجة فترة أطول.. وبعد تلك المحادثات كانت تحكي لي أخبارهن ثم تعود لتذكر حكايات الماضي المعروفة.. وأعود لأسمع بالشغف ذاته.

بينما كانت أمي تقول إنها كبرت كنت أسمع أبي يقول عن نفسه «يا ولد يا فؤاد».. لم ألحظ ذلك إلا مؤخرًا وأنا أنظر في صورة قديمة بدا فيها ينظر للفضاء البعيد متأنقًا بارتداء السترة السوداء التي كان يرتديها فقط في المناسبات بينما كانت هي تحمل حقائب ممتلئة بالشطائر وبحفازات أختي الصغيرة ويبدو شعرها مبعثرًا رغم محاولة جعله يشبه تسريحة ليلي علوي الأخيرة، قريبًا جدًا فهمت أنهما كانا يخفيان عنا الكثير من الاختلاف بينهما.

مرة أخرى أتت مي لمضايقتي بشكل غير معن، قالت لي:

- «ماذا يعمل والدك؟»

لا أدري متى أصبت بعدوى كره الفضوليين حتى أصبحت صيغة الأسئلة في حد ذاتها توترني وتدفعني لحالة من العدا، ويبدو أن ذلك هو ما دفعني لأن أقول لها:

- «وما شأنك أنت يا مقرفة؟!»

كان ذلك بمثابة حادث كبير في مجتمع البنات الصغير الذي كنت أنتمي إليه بكل جوارحي.. فقد بكت مي كثيرًا عند ميس عبير، وأضافت أنني قلت «يا مقرفة يا شبيهة الحيوانات»

- «لم أقل أبدًا يا شبيهة الحيوانات! لم تكن كلمة تتردد على لساني من الأصل!»

هكذا قلت وسط تنهيدات دموعي في غرفة الناظرة في الموقف الذي بدا كالتحقيق الجنائي.. حتى المعلمات تجمعن على باب الغرفة يتبادلن الحديث حول الموقف، وكنت أسمع من بعيد أطراف الكلام الذي كان يدور حول وقاحتي.

وقتها آمنت فعلاً أنني قد جننت، فقد كنت صامتة معظم الوقت مع الجميع عدا نوران وهند، كنت الطالبة المثالية بالنسبة للمعلمات، قليلة المشاكل قليلة كل شيء.. فكيف تجرأت فجأة! أصابني مس من جن؟ هكذا قالت ميس سعاد.. مدرسة التربية الدينية التي أخبرتنا أن النظر كثيرًا في مرآة الحمام يجلب الجن.. وكنت قبلها بيوم قد نظرت طويلًا أتأمل حلية شعري الجديدة في مرآة حمام المدرسة، خطرت لي تلك الفكرة فلم أخف، بل شعرت بالامتنان لهذا الجني الذي جعلني اتجرأ وأتمكن من جعل مي تبكي.

منذ ذلك اليوم أصبحت أتحاور مع الجني وأطلقت عليه اسم «أمير».. أصبح أمير صديقي العزيز الذي أقص عليه كل حكاياتي ويضحك معي على ما لا يضحك عليه أحد، أكثر من مرة بعد ذلك تمكنت من جعل مي تستشيط غضبًا.. والفضل كله لأمير.. أمير جني في مثل عمري ولكنه ابن ملك الجان..

لذا هو أكثر شجاعة ويستطيع أن يقول ما يحلو له وأن يعبر عمّا يرغب فيه..
أمير ليس وسيماً.. ورغم ذلك الكل يحبه - فقط - لأنه ابن الملك، أمير هو
واسطتي إن حدث لي مكروه في المدرسة وهو من ينقذني من براثن
المعلمات اللواتي ينحزنن دومًا لمي وهديل ضدي.

في اليوم الذي حضرت فيه أُمي للمدرسة بناءً على استدعاء ولي الأمر الذي
وُجه إليها بسببي بدت قوية بعكس ما توقعت، خفت أن تنصرهم عليّ وأن
توبخني أمامهم، قلت لأُمير أن يقنعها بأنني لم أخطئ، ولكنها دون أن يخبرها
أمير أي شيء قالت بثبات:

- «ربيت ابنتي أحسن تربية، ابنتي مستحيل أن تشتم ولا تعرف الألفاظ
النايبة».

وقفت بجوارها صامتة وأنا أشعر بالخجل، فقد كنت قد بدأت في التمرد على
تلك التربية دون الإفصاح.. في الطريق للبيت قلت لأُمي:

- «ماما أنا فعلاً شتمت مي، لكن ورب الكعبة الشريفة قلت لها فقط يا مقرفة
يا غبية.. لم أقل الكلمات الأخرى».

لم ترد أُمي.. كنت أظن أنها ما انفكت تفكر في الأمر بلا انقطاع.. وأنه هو جل
همها في تلك اللحظة.. أكانت حزينة؟ حين أتذكر التاريخ بالتقريب أكتشف
أنه يقترب من تاريخ وفاة خالي بالسرطان.. تتضح لي أنه كانت هناك أمور
أكبر من كلمات إهانة مي.

حتى الآن لا أجد تفسيرًا لماذا لم أقل وظيفة أبي لـمي بكل بساطة؟ لم أكن أشعر بأي نقص فيه.. ولم يخبرني أي شخص من قبل أن وظيفته لا تدعو للفخر أو أنها قد تدعو للتنصل منها.. فلما شعرت أن إجابتي على أي سؤال لـمي ستكون أداة ضدي فيما بعد!

سألت أـمي بشكل عابر فيما بعد:

- «ماما ماذا يعمل بابا؟»

نظرت لي نظرة عتاب معناها «ألا تعلمين؟» قلت مستدركةً:

- «بلى يا ماما أعلم أن بابا يعمل موظفًا في الحكومة، لكن سؤالي ماذا يفعل هناك حين يصل للمكتب؟»

تركت أـمي بكرة الصوف وقالت:

- «يمسك دفاترًا وأوراقًا وينظمها ويكتب أسماء الطلاب وبياناتهم».

قلت:

- «وهل تلك وظيفة كل شخص يتخرج من كلية الزراعة؟»

ضحكت أـمي ففرحت لأن دعابتي قد راقت لها وقالت:

- «لا.. هناك وظائف أخرى كثيرة».

فيما بعد حفظت أن أبي موظف شئون الطلبة بكلية الآداب قسم الدراسات العليا، كان المسمى الوظيفي طويلاً؛ لذا حفظته أنا قبل أختي الصغرى، وشعرت أن في طوله هيبة.. ورغبت أن أذهب ولو لمرة لأرى مكتب أبي.. وتمنيت أن أعرف وظيفة والدي.. أعساه يكون مديرًا كبيرًا كالذي دعاه أبي للغذاء عندنا وكان متوترًا لقدمه في ذلك اليوم الذي طبخنا فيه بط وملوخية؟ تأكدت أن وظيفة والدها هي مدير عام وإلا فلما تفضلها المعلمات! قال لي أمير إن والدها ساعٍ.. ضحكت معه وقد أعجبتني الفكرة.. الساعي يعد لأبي الشاي، ورغم ذلك هو صديقه وجاء لتعزيتنا يوم مات خالي واستقبله أبي في الصالون وكان أكثر تبسطًا وهدوءًا من يوم دعوة المدير. شعرت وقتها أننا أقرب لعائلة الساعي من عائلة المدير، وتأرجحت مخيلتي بين التوجس والضحك هل والدي مدير أم ساعٍ؟

سألني ميس عبير «ما هي وظيفة أحلامك» ازدردت لعابي وقمت ببطء لأجاوب، كنت دومًا ما أصاب برهاب التحدث والجميع صامتون.. وتنتابني حالة من انخفاض الصوت غير المقصودة.. ترفع ميس عبير صوتها التأنبي وقائلة:

- «ارفعي صوتك لا تمثلي الرقة!»

أحاول رفع صوتي والتشجع وأنا أقول:

- «أريد أن أكون موظفة شئون الطلبة في كلية الآداب قسم الدراسات العليا».

يضحك الجميع بلا انقطاع وأضحك معهم وأنا سعيدة أنني لم أتلعثم أثناء سردي لمسمى وظيفة أحلامي.

قالت مي:

- «هل كنتي تكريهيني إلى هذا الحد؟»

ضحكت وقلت:

- «لا أعرف! كنتي سخيصة جدًا.»

شردت ولم ترد، لم أعتقد أن تلك الكلمات ستضايقها، صرنا كبارًا.. كان ذلك حين أصبحنا في الشهادة الإعدادية ونستطيع أن نفلسف الأمور، وكنت قد علمت أن والدها الذي لا تراه كثيرًا موظفًا عاديًا لا يختلف كثيرًا عن أبي، ولم أعلم حتى الآن سر سؤالها لمجموعة بنات في مدرسة حكومية عن كونهم أغنياء أم فقراء!

عدت للبيت وخلعت حذائي قبل أن أدخل ليس فقط لأن أمي ستوبخني، بل لأنني أنا التي تنظف كل أسبوع ولو تلوث البيت بآثار الطين اليومي الذي يجلبه حذائي رغماً عني فأنا من ستتعب وهي تحكه بقوة ليترك أرضنا نظيفة. قابلت أمي على باب المطبخ فابتسمت وهي تسألني عن يومي، قلت لها بحماس:

- «طلبوا منا أن نكتب موضوعًا عن السعادة. ماما هل أنت سعيدة؟»

ردت بلا أي نوع من التفكير:

- «سأكون سعيدة لو غسلتي يديك وحضرتي معي الطعام وذاكرتي وحصلتي على علامات مرتفعة».

أصبت بحالة إحباط! وفكرت أن أُمي أصبحت سيدة بسيطة العقل مقارنة بي.. لا تفكر كثيرًا وكل ما يهمها هو المطبخ والنظافة صباحًا، وغزل ملابسنا ومتابعة دراستنا مساءً، أُمي امرأة خاملة العقل إذن.

على منضدة الطعام التي تتحول إلى مكتب ليلاً توقف قلبي عن الكتابة بعد أن كتبت أول جملة «السعادة لا يمكن كتابتها في الدفاتر»..

سألت أبي حذرةً:

- «بابا.. هل أنت سعيد؟»

بدا على وجه أُمي نظرة ضاحكة.. قال أبي:

- «أنا سعيد لأنني كل يوم أجدكم بخير».

ضحكت أُمي وقالت:

- «أكملي الفروض المدرسية هيا».

ازدادت درجة إحباطي، أبي أيضًا لا يملك فلسفة الكتب ولا يقدر على صياغة الأفكار.

في اليوم التالي ذهبت للمدرسة خائفة من رد فعل ميس هدى، معلمة اللغة العربية القاسية، وكنت قد قررت أن أتحداه وأن أخبرها أنني لم أتعلم معنى

كلمة «السعادة»، فلم أقدر أن أكتب سوى تلك الجملة، وكلما تخيلت أنني أقول لها ذلك ينبض قلبي بعنف. قبل أن تبدأ الحصة سألت مي هل كتبت الموضوع أم لا؟ قالت بلا اكتراث إنها كتبت أي شيء ليمر اليوم بسلام. قلت في نفسي مسكينة مي، انفصل والداها مبكرًا وتعيش مع جدتها، هذا هو السبب الذي جعل منها طفلة قاسية؛ لأنها كانت تبحث عن الحنان لذا بالتأكيد لا تعرف معنى كلمة سعادة، وكنت راضية عن تحليلي الذي ظننت أنه عميقًا.

شردت أثناء الحصة، لو كانت مي مسكينة فأنا أيضًا مثلها لم أجد تعريفًا للكلمة التي نقولها يوميًا رغم أن أسرتنا مكتملة الأركان، وحين جاء دوري لأقرأ موضوعي قمت وقد تلاشت شجاعتي، تمنيت أن يكون أمير معي ولكنه كان قد رحل بلا رجعة حين شككت مرة في وجوده فغضب وخصمني للأبد، تمنيت أن يحاول أن يقنعني بأنه حقيقي! لا أن يرحل عني ويؤكد كل من قالوا عنه أنه من صنع خيالي وكأنه لا يملك حجة كافية ليبرهن لي ولهم. حلمت ألا يعتبر سؤالي إهانة وأن يعود فقط ليحييني.

قلت بصوت متوسط العلو:

- «السعادة لا يمكن كتابتها في الدفاتر».

ضح الفصل كله بالضحكات، حتى ميس هدى القاسية ضحكت وقالت ببساطة غير متوقعة:

- «اجلسي يكفي عليك هذا».

عدت سعيدة، أفكر أن السعادة هي أن أجعل ميس عبير القاسية غير قاسية للحظات، في البيت وجدت أمي تجلس مع خالتي التي كانت توبخها، سمعتها تقول:

- «يا آمال المصاريف كثيرة جدًا على عاتق فؤاد! وأنتِ تحملين شهادة جامعية، والأولاد كبروا، وتلك وظيفة محترمة».

وكانت ملامح أمي تشبه ملامحي في الصباح وأنا أنتظر دوري لتوبخني ميس هدى.

في المساء بدا على أمي التردد، قالت:

- «فؤاد ماذا أقول لسميرة بخصوص الوظيفة؟»

رد أبي بغضب مكتوم:

- «قولي لها الأمر محسوم».

كلنا كنا نعرف أن أبي يرفض أن تعمل أمي، وكانت هي الوحيدة من نساء العائلة التي لا تعمل، كلهن كنّ موظفات ذوات مسميات طويلة تشبه مسمى وظيفة أبي، وكنت أشعر أحيانًا أن أمي مفضلة عنهن لأنها مختلفة.. وأحيانًا أخرى كنت أشعر أن اختلافها هو لأنها أدنى مكانة. فرض القيود أهو حب أم رغبة في التملك؟ والغيرة المبالغ فيها أهي حب أم قلة ثقة؟ أسئلة لم تدر بخلدي وقتها.

وقبل النوم في تلك الليلة شغلت بالي جملة واحدة «المصاريف كثيرة جدًّا على عاتق فؤاد»، وأنا كنت أسأله قبلها بيوم بكل صفاقة «بابا هل أنت سعيد؟».

في أول يوم لي هناك ذهب معي أبي للكلية أو بمعنى أصح أنا التي ذهبت معه كما يذهب كل صباح، راح يشير نحو كل مبنى ويشرح لي كالمرشد السياحي الفخور بآثار بلاده، لأول مرة أرى مكتب أبي ودفاتره العملاقة التي تمتلئ بأسماء طلبة الدراسات العليا في كلية الآداب وبياناتهم وشهاداتهم السابقة. كان يشعر أنه في مملكته وأن توصيته لزملائه أن يسهلوا لي الأمور وأنا أختار قسم الفلسفة شيئًا يدعو للفخر، وكنت أنا أيضًا فخورة؛ لأن الجميع هناك يحبونه.

تركته في مكتبه بالطابق العلوي ونزلت ليعضوا ملف أوراق في دفاتر أخرى.

وبعد أن بدأت الدراسة كنت أذهب معه صباحًا ويعود كل منا وحده لاختلاف المواعيد، اخترت كلية الفلسفة ولكن كنت قد كفت عن التفلسف.

في ذلك اليوم عدت للبيت ووجدت غرفتي مقلوبة وقبل أن أصرخ هلعًا قالت لي أمي إنها تبحث عن ملابس قديمة لتعطيها لأبناء أرملة الساعي الذي كان يعمل مع أبي.

المشكلة بالنسبة إلينا في التبرع بالملابس القديمة هو أن كلها قد غزلتها أمي! وكنت أرفض التفريط في أي منها، وأمي تبتزني عاطفيًا في أننا لا بد أن

نساعد الأيتام، كان ذلك نقاشًا دوريًا بيننا، أقول لها: أعطهم مالًا ولا تعطهم ذكرياتنا! فتقول: لو معنا المال لأعطيناهم. وافقت على مضمض.. فقط لأنني بدأت أشعر أنني بهذا التصرف شخص شرير يحرم الأكثر فقرًا منا.

رحت أفحص معها الملابس الموضوعة بعناية في صندوق تحت فراشي وبينها قطع من الصابون حتى لا تتعفن، أخرجت أمي دفترًا نعرف جميعًا أنها تكتب فيه مصاريف البيت بدقة فائقة وبدأت في حصر قطع الملابس التي لم تعد تصلح حتى لأختي الصغيرة التي أصبحت في أولى ثانوي، كتبت:

«سترة عليها صورة فيل يصلح لسن ثمان سنوات».

ثم نظرت لي باسممة وقالت:

- «هل تعلمين أن غزله كان صعبًا جدًّا وأني طلبت من جدتك مساعدتي فيه؛ لأن سيادتكم ترغيبين في الحصول عليه بأي ثمن».

شعرت أن الفيل الضاحك ينظر إليّ وهو يرجوني أن يذهب لطفل آخر يبحث عن دفتر فيه اسمه.

حالات

كعادتي استيقظت قرب العصر فقالوا لي إنه من الصباح يوجد رجال بأسلحة نارية يقفون على بوابة بنايتنا يتوعدون الداخلين فلا يدخلون ويهددون الخارجين فلم يعد يخرج أحد.. ارتديت ملابسني على عجل ولم يمنعني أحد بلا سبب واضح رغم خطورة الموقف.. كأن الكل يمثل مسرحية معدة السيناريو والكل يحفظ دوره فلا يتدخل في دور الآخر..

خرجت كما أعدّ لي الخروج وهبطت السلالم بتوجس حتى وصلت لباب البناية.. تلوت كلمات دينية وخرجت صوب المدافع الرشاشة التي يحملها هؤلاء.. من هم أصلاً؟ لم أعرف حتى تلك اللحظة.. ما مطالبهم.. لم يذكر أحدهم شيئاً عنها.. خرجت لأنني لم أكن أستطيع أن أمكث أكثر من دقيقة بعدما سمعت أنه ليس مسموحاً لي بالخروج.. وبمجرد رؤيتي للشمس ومس قدمي لمدخل عمارتنا الخارجي انهالت عليّ الرصاصات!

كانت ملتهبة للغاية.. اخترقت واحدة رقبتني من ناحية اليسار وأخرى اخترقت معدتي من الناحية ذاتها التي حين حاولت أن ألتفت كان الرصاص من نصيبها.. سقطت أرضاً على الفور وأعدت الكلمات الدينية وانتظرت.. ها أنا أجرب ما لم أجربه مطلقاً منذ ولادتي، وما لم يجربه كل من يقفون حولي.. إنه الموت.

كان الألم رهيباً.. للحظات قليلة حتى راح تماماً.. قمت.. وقفت.. مذهولة.. هل انتهى كل شيء بتلك السرعة؟ حسناً لم يكن الأمر يستدعي كل هذا الرعب..

انفض الجمع وهرب المسلحون بعد رؤيتهم للدماء.. سرت في الطريق وأنا
أحاول اكتشاف الوضع الجديد.. مرت أمامي امرأة وأطفالها.. كلمتهم فلم
يجيبوا واخترقوني حتى اكتشفت أنني غير مرئية لهم.. سعدت عدوًا لبنائتنا
ولشقتنا ووجدت الأغبياء هناك يبيكونني بحرقه..

قلت لهم أن يكفوا عن هذا الهراء.. لم يسمعونني واستمروا بلا توقف.. أتت
فتاة صغيرة بنية الشعر خضراء العين وقالت لي بصوت طفولي مرح إنهم لن
يروني ولن يسمعونني فلا أحاول ثانية.. فهمت أنها قد ماتت أيضًا.. ووجدت
غيرها كثيرين.. كثيرين جدًّا.. المكان في الحقيقة مزدحم بالأموات.. جربت
الطيران فنجحت.. خرجت من بنائتنا وجلست على شجرة أتأمل الطريق
وأبتسم حتى جاء ثلاثة كلاب شارع وراحوا ينبحون عليّ.. في البداية خفت
منها ثم اكتشفت أنه بعد تلك الرصاصات لن تؤذيني أنياب كلاب ولو كانت
مسعورة، نزلت وربتت على رأس أحدهم فهدأ واستكان..

استوقفت أحد الأموات من حولي وسألته عن أهلي قال لي اظهري لهم في
الأحلام.. فهم في الأحلام يفقدون كثيرًا من أوزانهم ويرون بعض الحقائق..
شعرت بفيض من الحرية المطلقة التي وهبت إليّ منذ دقائق معدودة.. ولم
ينغصه إلا رصاصة رقبتني التي كانت تشعرني وكأنني لا أستطيع ازدراد لعابي
وتذكرني بكل لحظة ألم وخطأ وتهور كل ثانية.. فكرت في أنني حين أصعد
لأهلي مرة أخرى قد يروني..

قد أكون أنا الأولى.. فأنا لم أمت بعد، تلك مجرد حالة بين الموت والحياة
سأموت بعدها فعليًا في وقت لاحق.. ثم خطرت لي فكرة أشعرتني بسعادة
غامرة.. كتبت رسالة لهم ووضعتها على الطاولة الكبيرة التي تتوسط البيت

ويراها الكل حين يخرجون من غرفهم.. أخبرتهم فيها أنني سأسافر لأسبوع
وأني لم أمت..

استطاعوا رؤية الرسالة وقرأوها فارتاحوا وضحكوا وعادوا لحياتهم
وأشغالهم.. بعد أسبوع جددت الرسالة بأني سأضطر للمكوث في سفري لشهر
آخر.. وكنت بعد ذلك أجدد الرسالة وأقص عليهم حكايات تفيد كوني بخير..
حتى تلاشى وجودي من داخلهم تمامًا لكن دون حزن أو حسرة.. صار التعود
هو سيد الموقف.. أما أنا فقد فطنت إلى أن حالتي تلك هي حالة بين الموت
والحياة.. سأستمر فيها حتى أصل للموت الحقيقي.. أو ربما حتى يقتلني أحد.
الأموات وأنتقل لحالة ثالثة.

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره
أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية
والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ
العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي،
وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون،
متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة،
متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي
فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل،
والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:


www.kayanpublishing.com


وللاتصال الهاتفي:


هاتف أرضي: -0235611772 0235688678


هاتف محمول: 01000405450 / 01005248794 / 01001872290


ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

 Kayan.publishing

 kayan_publishing

 Kayanpublishing

 kayanpublishing

 +KayanPublishing

 KayanPublishing